الجزء الثاني

فهرس المحتويات

نوعا الشرك: ١٢٥
التعطيل:..... ١٢٥
فصل: شرك من جعل مع الله إلهًا آخر:..... ١٢٦
فصل: الشرك في العبادة:..... ١٢٦
أقسام الشرك:..... ١٢٧
فصل: الشرك في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات:..... ١٢٨
فصل: الشرك في اللفظ: ١٢٩
فصل: الشرك في الإرادات والنيات: ١٣٠
فصل: حقيقة الشرك: ١٣٠
فصل: سوء الظن بالله: ١٣٢
فصل: الشرك والكبر: ١٣٨
فصل: القول على الله بغير علم: ١٣٨
فصل: الظلم والعدوان: ١٣٩
توبـــة القاتـــل:..... ١٤٠
التوبة من الحقوق المالية:..... ١٤١
فصل: جريمة القتل: ١٤٢
جريمة الزنى: ١٤٤
فصل: مدخل المعاصي: ١٤٦
النظرة:..... ١٤٦
فصل: الخطرة:..... ١٤٨
خطرات العاقل: ١٥٠
فصل: اللفظة: ١٥٣
فصل: الخطوة:..... ١٥٥
فصل: عقوبة اللواط: ١٦٢
فصل: عقوبة اللواط وعقوبة الزنى:..... ١٦٨
فصل: واطء البهيمة: ١٦٩
فصل: اللواط والسحاق:..... ١٧٠
فصل: دواء اللواط:..... ١٧١
منافع غض البصر:..... ١٧١
منع تعلق القلوب:..... ١٧٤

فصل: توحيد المحبوب: ١٧٥
فصل: خاصية التعبد: ١٧٦
فصل: آخر مراتب الحب: ١٨١
الشرك في المحبة: ١٨٢
فصل: أنواع المحبة: ١٨٣
فصل: كمال المحبة: ١٨٤
فصل: المحبة والخلة: ١٨٥
فصل: إيثار الأعلى: ١٨٥
فصل: إيثار الأنفع: ١٨٦
فصل: أقسام المحبوب: ١٨٧
فصل: الحب أصل كل عمل: ١٨٨
كلمة التوحيد: ١٨٩
روح كلمة التوحيد: ١٨٩
فصل: المحبة المحمودة والمحبة المذمومة: ١٩٢
فصل: الحب أصل كل حركة: ١٩٣
فصل: الحب لله وحده: ١٩٥
فصل: آثار المحبة: ١٩٧
فصل: المحبة أصل كل دين: ١٩٨
الدين دينان: ٢٠٠
فصل: عشق الصور: ٢٠١
فصل: عشق اللوطية: ٢٠٤
فصل: دواء العشق: ٢٠٥
أضرار العشق: ٢٠٥
فصل: مقامات العاشق: ٢٠٩
المحبة النافعة: ٢٢٣
فصل: كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة: ٢٢٦
رؤية الله: ٢٢٨
فصل: الحب الذي لا ينكر ولا يذم: ٢٣٠
فصل: محبة الزوجات: ٢٣٢
أقسام عشق النساء: ٢٣٦
فصل: أقسام الناس في العشق: ٢٣٧
فصل: حديث من عشق فعف: ٢٣٧

نوعا الشرك:

* فنقول، وبالله التوفيق والتأييد، ومنه نسأل المعونة والتسديد، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل: وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٢].

وقال تعالى مخبرًا عنه أن قال لهامان: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً}[٣].

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل يكون المشرك مقرّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه معطل حق التوحيد.

التعطيل:

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا شرك طائفة من أهل وحدة الوجود الذين يقولونك ما ثم خالق ومخلوق ولا ههنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويسمونها بالعقول والنفوس، ومن هذا شرك من عطل

---

[٢] الآية: ٢٣ من سورة الشعراء.

[٣] الآيتان: ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر.

أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعالها من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا لـــه اســمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

فصل: شرك من جعل مع الله إلهًا آخر:

* **النوع الثاني:** شرك من جعل مع الله إلهًا آخر ولم يعطل أسمائه وصفاته وربوبيتـــه كشرك النصارى الذين جعلوه ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا.

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشـــر إلـــى الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنهـــا تحـــدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا الشرك شرك الذي حاجّ إبراهيم في ربه: {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّـــذِي يُحْيِـــي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت}[1].

فهذا جعل نفسه ندّا لله، يحيي ويميت بزعمه، كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبـــراهيم أن طرد قولك على أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها، ولـــيس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزامًا على طرد الدليل إن كان حقًا.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبّرة لأمر هـــذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عُبَّاد الشمس وعُبَّاد النار وغيرهم.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يـــزعم أنـــه أكبـــر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبوديته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقرّبه إلى المعبود الـــذي هـــو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى، فتارةً تكثر الآلهة والوسائط وتارةً تقلّ.

فصل: الشرك في العبادة:

* وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك، وأخف أمرًا، فإنه يصـــدر ممـــن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيـــره

---

[1] الآية: ٢٥٨ من سورة البقرة.

ولا رب سواه، ولكن لا يخص الله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة فللَّه من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: "الشرك في هذه الأمة أخف من دبيب النملة" قالوا: كيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: "قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم".

فالرياء كله شرك، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[1].

أي كما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا".

* وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}[2].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، يقول الله: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك بي، وأنا منه بريء"[3].

أقسام الشرك:

* وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ}[1].

---

[1] الآية: ١١٠ من سورة الكهف.

[2] الآية: ٥ من سورة البينة.

[3] صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه والطيالسي وأحمد.

[1] الآية: ١٦٥ من سورة البقرة.

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[٢].

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته، وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟

فأي ظلم أقبح من هذا؟ وأي حكم أشد جورًا منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}[٣].

فعدل المشرك من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه!!

فصل: الشرك في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات:

* ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الأفعال، والأقوال، والإرادات، والنيات.

فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبوديةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها، والسجود لها، ولقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله؟

ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا أنبياء قبورهم مساجد".

وفي الصحيح عنه: "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد".

وفي الصحيح أيضًا عنه: "إن مَن كان قبلكم يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك".

---

[٢] الآيتان: ٩٧ ، ٩٨ من سورة الشعراء.

[٣] الآية الأولى من سورة الأنعام.

وفي مسند الإمام أحمد ﷺ ، وصحيح ابن حبان عنه ﷺ قال: "لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج".

وقال: "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

وقال: "إن من كان من قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة".

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟ وقد قال النبي ﷺ : "اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد".

وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدونه لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين الذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

أما السجود لغير الله فقال ﷺ : "لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله".

"ولا ينبغي" في كلام الله ورسوله ﷺ الذي هو في غاية الامتناع شرعًا، كقوله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً}[1]، وقوله {وَمَا يَنْبَغِي لَه}[2]، وقوله: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}[3]، وقوله: {مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء}[4].

فصل: الشرك في اللفظ:

* ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: "من حلف بغير الله فقد أشرك" صححه الحاكم وابن حبان.

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: "ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندّا؟ قل: ما شاء الله وحده".

هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}[1].

فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت في

---

[1] الآية: ٩٢ من سورة مريم.

[2] الآية: ٦٩ من سورة يس.

[3] الآية: ٢١٠ من سورة الشعراء.

[4] الآية: ١٨ من سورة الفرقان.

[1] الآية: ٢٨ من سورة التكوير.

الأرض، أو يقول: والله وحياة فلان، أو يقول: نذرًا لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلانًا، ونحو ذلك.

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش، يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل لله ندّا بها، فهذا قد جعل من لا يُداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء -بل لعله أن يكون له من أعدائه- ندّا لرب العالمين، فالسجود والعبادة، والتوكل والإنابة، والتقوى والخشية، والحسب والتوبة، والنذر والحلف، والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد، والاستغفار وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت والدعاء، كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وفي مسند الإمام أحمد: "أن رجلاً أُتي به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال: عرف الحق لأهله".

فصل: الشرك في الإرادات والنيات:

* أما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقَلّ من ينجو منه، من أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء مه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص: أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[٢] وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

فصل: حقيقة الشرك:

* إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور، فنقول، ومن الله وحده نستمد الصواب.

حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق والتشبه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فعكس الأمر من نكس الله قلبه، وأعمى بصيرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهًا، والتشبيه تعظيمًا وطاعة، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية.

---

[٢] الآية: ٨٥ من سورة آل عمران.

فإن من خصائص الإلهية التفرُّد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا –فضلاً عن غيره– شبيهًا لمن له الأمر كله، فأزِمَّة الأمور كلها بيديه، ومراجعها إليه، فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبّه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين.

فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}[1].

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به.

---

[1] الآية: ٣٥ من سورة النور.

هذا في جانب التشبيه، وأما جانب التشبه به: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاء واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويذلّه غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: "يقول الله عز وجل: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذّبته"[٢].

وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصورة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟.

كما قال النبي ﷺ : "أشد الناس عذابًا يوم القيامة، المصورون، يقال لهم أحيوا ما خلقتم"[٣].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة" فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر.

* **والمقصود:** أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟ وكذلك من تشبّه في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كملك الملوك، وحاكم الحكّام، ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن أخنع الأسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه –أي ملك الملوك– لا ملك إلا الله" وفي لفظ "أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك"[٤].

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم، ويقضي عليهم، لا غيره.

فصل: سوء الظن بالله:

* إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض

---

[٢] أخرجه مسلم والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود وابن ماجه وأحمد وغيرهم عن غير واحد من الصحابة.

[٣] أخرجه أحمد، صحيح الجامع الصغير.

[٤] أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة.

أسماءه وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً}[1].

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[2].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: {مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[3].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح.

يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[1].

---

[1] الآية: ٦ من سورة الفتح.

[2] الآية: ٢٣ من سورة فصلت.

[3] الآيات: ٨٥ – ٨٧ من سورة الصافات.

[1] الآية: ٢٨ من سورة الروم.

أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية، التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي؟.

فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظّمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا مفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}**[٢].

فما قدر الله قدره مَن عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبه الذباب شيئًا مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه، وقال تعالى: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[٣].

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً، ولا أنزل كتابًا، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى، وخلقهم باطلاً وعبثًا، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن يشاء من خلقه بما يريد، أو نفى عموم قدرته وتعلّقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علوًا كبيرًا.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما يفعله العبد، ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه ألبتة، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون

---

[٢] الآيتان: ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج.

[٣] الآية: ٦٧ من سورة الزمر.

للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله ألبتة، ثم يعاقبه عليه عقوبة الأبد، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا، وقول هؤلاء شرّ من أقوال المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره.

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه من نتن ولا حش، ولا مكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان، صانه عن عرشه أن يكون مستويًا عليه.

{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[1].

وتعرج الملائكة والروح إليه، وتنزل من عنده: **{يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}**[2].

فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان، بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختياريّا يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفي حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله، التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبه وولدًا، أو جعله سبحانه يحل في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأهانهم وأذلّهم، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا، وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوّا كبيرًا.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا فادّعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلاً يكذب عليه كل وقت، ويقول: قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا، ينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه، ويعزّه ويجيب

---

[1] الآية: ١٠ من سورة فاطر.

[2] الآية: ٥ من سورة السجدة.

دعواته، ويمكنه ممن خالفه، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويحدث أدلة تصديقه شيئًا بعد شيء.

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، تعالى عن قول الجاحدين علوّا كبيرًا.

فوازن بين قول هؤلاء، وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما

بأسحم داج عوض لا تتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه يجوز أن يعذب أولياءه، ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم، وينعم أعداءه، ومن لم يؤمن به طرفة عين، ويدخلهم جار النعيم، وأن كلا من الأمرين بالنسبة إليه سواء، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخير لا لمخالفة حكمته وعدله.

وقد أنكر سبحانه في كتابه، على من جوّز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}**[1].

وقال: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}**[2].

وقال: **{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}**[1].

وكذلك لم يقدره حق قدره من يزعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ المظلوم فيه حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين للمشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

---

[1] الآيتان: ٢٧ ، ٢٨ من سورة ص.

[2] الآيتان: ٢١ ، ٢٢ من سورة الجاثية.

[1] الآيتان: ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، ويستحيي من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدّمه على الكثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه -إن ساعد القدر- قام قيامًا لا يرضاه مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوق مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكًا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثّبًا على محض حقه، واستهانةً به، وتشريكًا بينه وبين غيره، ولا ينبغي ولا يصلح له سبحانه، فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق، وأهونهم عليه وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}**[٢].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الأمر للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}**[٣].

فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ويوهمه أنه ملك، وكذلك عُبَّاد الشمس والقمر والكواكب وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكافر، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان.

---

[٢] الآيتان: ٦٠ ، ٦١ من سورة يس.

[٣] الآيتان: ٤٠ ، ٤١ من سورة سبأ.

فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه، ورضيها لهم وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم، لا عبد الله ورسوله، فنزل هذا كله على قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[1].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنًا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضى الشيطان، ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[2].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه لمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا.

فصل: الشرك والكبر:

* فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق، وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله.

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم، فإن الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده، الشرك والكبر ينافيان ذلك.

وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، فلا يدخلها من كان في قلبه مثال ذرة من كبر.

فصل: القول على الله بغير علم:

* ويلي ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ ، فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لكمال الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب، فإن صدر ذلك عن علن فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثمًا عند الله.

---

[1] الآيتان: ٦٠ ، ٦١ من سورة يس.

[2] الآية: ١٢٨ من سورة الأنعام.

فإن المشرك المقرّ بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله! كما أن من أقر لملك بالملك، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك، ولكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور يقربه إليه -خير ممن جحد صفات الملك، وما يكون به ملكًا، وهذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول.

فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظامًا له وإجلالاً؟.

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لا دواء له، ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات، فقال: **{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً}**[1].

واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة لهذه الآية، ولقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب.

والقول على الله بلا علم والشكر متلازمان، ولما كانت البدع المضلّة جهلاً بصفات الله وتكذيبًا أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ عنادًا وجهلاً كانت من أكبر الكبائر، وإن قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب، كما قال بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يتاب منها.

وقال إبليس: أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يسحبون أنهم يحسنون صنعًا.

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

فصل: الظلم والعدوان:

* ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض، وأرسل له سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس به كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه، وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له -وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليهم، وخص

---

[1] الآيتان: ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر.

الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة، فقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله- من أقبح الظلم وأشده، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده، وكذلك قتله ذا رحمه.

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعي في إبقائه ونصيحته.

ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبيًا أو قتله نبي، ويليه من قتل إمامًا عادلاً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه، وينصحهم في دينهم.

وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدًا الخلود في النار، وغضب الجبار، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، هذا موجب قتل المؤمن عمدًا ما لم يمنع منه مانع.

ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعًا واختيارًا مانع من نفوذ ذلك الجزاء، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه؟ فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

توبة القاتل:

* والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلا بد أن يستوفى في دار العدل.

قالوا: وما استوفاه الوارث إنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه؟ وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟.

وهذا أصح القولين في المسألة، وأن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهما.

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذي جناه قد أقيم عليه حده.

قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر، وهما أعظم إثمًا من القتل، فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة، وقال تعالى: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[1] فهذه في حق التائب، وهي تتناول الكفر وما دونه.

قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه.

---

[1] الآية: ٥٣ من سورة الزمر.

قالوا: وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول، فأقام الشارع وليه مقامه وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول، بمنزلة تسليم المال عليه لوارثه، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث.

* **والتحقيق في المسألة:** أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلى الولي ندمًا على ما فعل، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا، سقط حق الله بالتوبة، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا.

التوبة من الحقوق المالية:

* وأما مسألة المال: فقد اختلف فيها، فقالت طائفة: إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهدته في الآخرة، كما برئ منها في الدنيا.

وقالت طائفة: بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته، ومات ولم ينتفع به، وهذا ظلم لم يستدركه، وإنما ينتفع غيره باستدراكه، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة به للجميع، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد.

وفصل شيخنا، رحمه الله، بين الطائفتين: فقال: إن تمكن الموروث من أخذ ماله أو المطالبة به فلم يأخذه حتى مات، صارت المطالبة به للوارث في الآخرة، كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه، بل حال بينه وبينه ظلمًا وعدوانًا، فالطلب له في الآخرة.

وهذا التفصيل من أحسن ما يُقال، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل، وداره التي أحرقها غيره، وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث، فحق المطالبة لم تلف على ملكه، ويبقى أن يُقال: فإذا كان المال عقارًا أو أرضًا أو أعيانًا قائمة بعد الموت فهي ملك الوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا.

وهذا سؤال قوي لا مخلص منه إلا بأن يُقال: المطالبة لهما جميعًا، كما لو غصب مالاً مشتركًا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه، كما لو استولى على وقف مرتب على

بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم، لم يكن بعضهم أولى بها من بعض، والله أعلم.

فصل: جريمة القتل:

* ولما كانت مفسدة القتل تلي هذه المفسدة قال الله تعالى: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً}**[1].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه، وقد قال تعالى: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**[2] وقال تعالى: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}**[3] وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار.

قال النبي ﷺ : "من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله" أي مع العشاء، كما جاء في لفظ آخر، وأصرح من هذا قوله: "من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر" وقوله ﷺ : "من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن" ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به، فيكون قدرهما سواء، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب، وما أوتي أجد -بعد الإيمان- أفضل من الفهم عن الله ورسوله ﷺ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

فإذا قيل: ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة، وقاتل الناس جميعًا؟

قيل: في وجوه متعددة:

أحدها: أن كلاً منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره، متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته، واستحقاق الخلود في نار جهنم، وإعداده عذابًا عظيمًا، وإنما التفاوت في دركات العذاب، فليس إثم من قتل نبيّا أو إمامًا عادلاً أو عالمًا يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس.

الثاني: أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس.

---

[1] الآية: ٣٢ من سورة المائدة.

[2] الآية: ٤٦ من سورة النازعات.

[3] الآية: ٣٥ من سورة الأحقاف.

الثالث: أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفسًا بغير استحقاق، بل لمجرد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله، فهو مُعادٍ للنوع الإنساني.

ومنها: أنه يسمى قاتلاً أو فاسقًا أو ظالمًا أو عاصيًا بقتله واحدًا، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعًا.

ومنها: أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضوًا فكأنما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه، فمن آذى مؤمنًا واحدًا فكأنما آذى جميع المؤمنين، وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور، وقد قال النبي ﷺ : "لا تقتل نفس ظلمًا بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمه لأنه أول من سن القتل"[١].

ولم يجيء هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أولى قاتل، لأنه أول من سنّ الشرك، ولهذا رأى النبي ﷺ عمرو بن لحى الخزاعي يعظم بأعظم العذاب في النار، لأنه أول من غيَّر دين إبراهيم عليه السلام، وقد قال تعالى: {**وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**}[٢] أي فيُقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سنّ سُنّة سيئة فاتُّبِعَ عليها.

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "يجيء المقتول يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، يقول: يا رب، سل هذا: فيم قتلني؟" فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا}[٣].

ثم قال: " ما نسخت هذه الآية ولا بدلت، وأنَّى له التوبة؟" قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفيه أيضًا: عن نافع قال: "نظر عبد الله بن عمر يومًا إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك" قال: هذا حديث حسن.

---

[١] حديث صحيح أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود.

[٢] الآية: ٤١ من سورة البقرة.

[٣] الآية: ٩٣ من سورة النساء.

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: "أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه فليفعل".

وفي صحيحه أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ "لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا".

وذكر البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: "من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله".

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر".

وفيهما أيضًا عنه ﷺ : "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ : "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا".

هذه عقوبة عدو الله إذا كان في عهده وأمانه، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟.

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم؟

وفي بعض السنن عنه ﷺ : "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق"[1].

جريمة الزنى:

* ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتلى في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سننه كما تقدم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى.

وقد أكد سبحانه حرمته، بقوله: **{وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَابَ...}**[1].

---

[1] هو بهذا اللفظ من رواية ابن ماجه عن البراء بن عازب وصححه الألباني في الجامع الصغير، وبلفظ "رجل مسلم" أخرجه الترمذي والنسائي عن ابن عمر، صحيح الجامع الصغير.

فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالى: **{وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً}**[٢].

فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: "رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا" ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصّه بمزيد ذم فقال: **{إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً}**[٣].

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه، فلا سبيل إلى الفلاح بدونه، فقال: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}**[٤].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة أمل الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذمّ الإنسان، وأنه خلق هلوعا لا يصبر على سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}**[١].

---

[١] الآيات: ٦٨ – ٧٠ من سورة الفرقان.

[٢] الآية: ٣٢ من سورة الإسراء.

[٣] الآية: ٢٢ من سورة النساء.

[٤] الآيات: ١ – ٧ من سورة المؤمنون.

[١] الآيات: ٢٩ – ٣١ من سورة المعارج.

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[٢].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من البصر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار ويتبر ما علا تتبيرًا.

فصل: مدخل المعاصي:

* وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكرها في كل باب منها فصلاً يليق به.

النظرة:

* **فأما اللحظات:** فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق قصره أورد نفسه موارد المهلكات.

وقال النبي ﷺ : "لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى"[٣].

وفي المسند عنه ﷺ : "النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه"[٤] هذا معنى الحديث.

وقال: "غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم" وقال: "إياكم والجلوس على الطرقات" قالوا: يا رسول الله مجالسنا، ما لنا بد منها، قال: "فإن كنتم لا بد فاعلين فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حقه؟ قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام..."[١].

---

[٢] الآية: ١٩ من سورة غافر.

[٣] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير.

[٤] أخرجه الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي، والطبراني بإسناد ضعيف جدًا، وذكره المنذري في "الترغيب والترهيب".

[١] صحيح أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود عن أبي سعيد الخدري.

والنظرة أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: "الصبر على غضّ البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده".

قال الشاعر:

كل الحوادث مبدؤها من النظر
ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها
كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه
في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته
لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة على بعضه.

قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا
لقلبك يومًا، أتعبتكَ المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ
عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه، فإن قوله: "لا كله أنت قادر عليه" نفي لقدرته على الكل الذي لا ينفى إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد.

وكم من أرسل لحظاته فما قلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً، كما قيل:

يا ناظرًا، ما أقلعت لحظاته
حتى تشحّط بينهن قتيلا

ولي من أبيات:

ملَّ السلامة فاغتدت لحظاته

وقفًا على طلل يظن جميلا

ما زال يتبع إثره لحظاته

حتى تشحّط بينهنّ قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوّأ مكانًا من قلب الناظر.

ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا

أنت القتيل بما ترمي فلا تُصِبِ

يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له

احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرحًا، فيتبعها جرحًا على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، ولي أيضًا في هذا المعنى:

ما زلت تتبع نظرةً في نظرةٍ

في إثر كل مليحة ومليح

وتظن ذاك دواء جرحك وهو في الـــ

ـــتحقيق تجريحٌ على تجريح

فذبحتَ طرفكَ باللحاظ وبالبكا

فالقلبُ منكَ ذبيح أيّ ذبيح

وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دواء الحسرات.

فصل: الخطرة:

* **وأما الخطرات:** فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة **{كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**[1].

---

[1] الآية: ٣٩ من سورة النور.

وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتحلّى بها، وهي لعمر الله رءوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، كما قال الشاعر:

أماني من سعدى رواء على الظما
سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
مُنًى إن تكن حقًا تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم، والمتمني لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، ففتح بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره.

وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب.

والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خسارة النفس ووضاعتها، وإنما شرف النفس وذكاؤها، وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول:

خطرات يستجلب بها منافع دنياه.

وخطرات يستدفع بها مضار دنياه.

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدّم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، وأخّر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران:

أحدهما: مهم لا يفوت.

والثاني: غير مهم ولكنه يفوت.

ففي كل منهما ما يدعو إلى تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قدّم المهم خشي فوات ما دونه، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم، وكذلك يعرض لـــه أمـــران لا يمكـــنم الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر.

فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن ههنا ارتفع من ارتفع وأنجـــح مـــن أنجح، وخاب من خاب، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهـــم الـــذي لا يفوت على المهم الذي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي عليها مدار الشرع والقدر، وإليهـــا مرجـــع الخلق والأمر، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونهـــا، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها، فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها.

خطرات العاقل:

* فخطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك، وبذلك جـــاءت الشـــرائع، ومصـــالح الـــدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياتها المنزلة وتعلقها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعـــالى، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصـــفاته وحكمته وإحسانه، وبره ووجوده، وقد خص الله سبحانه عباده على التفكّر في آياته وتـــدبرها وتعلقها وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف الـــنعم وســـعة رحمتـــه ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمّارة بالسوء، ومتى كسرت عاشـــت الـــنفس المطمئنة وانبعث وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكتـــه، وبـــث أمـــراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه، فالعارف ابن وقتــه؛ فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها؛ فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لــم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي ﷺ : "صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حــرفين: أحــدهما قــولهم: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك".

وذكر الكلمة الأخرى: "ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل".

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة؛ وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقــيم؛ ومــادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيها عاش عيش البهائم؛ فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة؛ وكان خيب ما قطعه به النوم والبطالة فمــوت هــذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد –وهو في الصلاة– ليس له من صلاته إلا ما عقل منها فليس لــه مــن عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر؛ فإما وساوس شيطانية وإما أمــانٍ باطلــة؛ وخدع كاذبة؛ بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوســين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كان منزلتي في الحشر عندكم
ما قد لقيت فقد ضيّعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنًا
واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر؛ وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن تركته مر وانصرف عنك؛ وإن استدعيته سحرك بحديثه وغروره وهو أخــف شيء على النفس الفارغة الباطلة؛ وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمّارة ونفسًا مطمئنة وهما متعاديتان، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى؛ فليس على الــنفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على الــنفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وما جاء به داعي الهوى، وليس عليها شــيء أضــر منــه والملك مع هذه عن يمنة القلب والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفى أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحق كله

يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله تعالى حكمًا لا يبدل أبدًا: أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية، لم تستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبًا فارغًا فتمكّنا

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر، وأن لا يمكنوا خاطرًا يدخل قلوبهم، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر، فبقيت فارغة لا شيء فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليًا، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا أن تكون المسئولية على قلبه، وهي إرادة، مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الخلق والتطرق إلى ذلك، والتوسل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها.

وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ، وهيهات هيهات، إنما الكمال في امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالى من العبد ومن الناس، والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

ولهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالى، فربما استعملها في صلاته، وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة.

وهذا باب عزيز شريف، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب، متضلع من العلم عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر بها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصل: اللفظة:

* **وأما اللفظات:** فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: "القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها" فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك بما في قلبه، حلو وحامض، عذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدور بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"[1].

وسُئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: "الفم والفرج" قال الترمذي: حديث صحيح.

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة، ويباعده من النار، فأخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: كفّ عليك هذا، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم" قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان؟ فقال الله عز وجل: من ذا

---

[1] أخرجه أحمد والبيهقي عن أنس وحُسِّن، كذا في كنز العمال (جـ٩/ ٢٤٩٢٥).

الذي يتألَّى عليَّ أني لا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحبطتُ عملك" فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: "تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته".

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها نار جهنم" وعند مسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب".

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ : "إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله لها بها سخطه إلى يوم يلقاه" وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: توفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ : "وما يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه" قال: حديث حسن.

وفي لفظ: "إن غلامًا استشهد يوم أُحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع؛ فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئًا لك يا بني الجنة، فقال النبي ﷺ : "وما يدريك؟ لعله يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره".

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت".

وفي لفظ لمسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت" وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحدًا بعدك، قال: "قل: آمنت بالله ثم استقم" قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا، والحديث صحيح.

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺقال: "كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر أو ذكر الله عز وجل" قال الترمذي حديث حسن.

وفي حديث آخر: إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تفكر اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا".

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد، ولقد رؤي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك" أنا أعلم بمصلحة عبادي.

وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر الله، ما أتكلم بكلمة وإلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام، أو كما قال.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد.

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من الله وما والاه.

وكان الصدّيق ﷺ يمسك على لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد.

والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: {**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**}[1].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط – وهم أهل الصراط المستقيم– كفّوا ألسنتهم عن الباطل؛ وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

فصل: الخطوة:

* **وأما الخطوات:** فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربةً ينويها لله، فتقع خطاه قربة.

---

[1] الآية: ١٨ من سورة ق.

ولمّا كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}[1].

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[2].

فصـــل

* وهذا كله ذكرناه في مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، وقد قال ﷺ: "أكثر ما يدخل الناس النار: الفم والفرج".

وفي الصحيحين عنه ﷺ : "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة" وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في القرآن، ونظير حديث ابن مسعود.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه، فالزنى أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردة، وأيضًا فإنه تنتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رءوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنى، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلته على أهله وأهلها أجنبيّا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها.

وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة، فكم في الزنى من استحلال لحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم؟

ومن خاصيته أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك ويقرّبه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.

---

[1] الآية: ٦٣ من سورة الفرقان.

[2] الآية: ١٩ من سورة غافر.

وقال سعد بن عبادة ﷺ : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، واله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن" متفق عليه.

وفي الصحيحين عنه ﷺ : "إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم الله".

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ : "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه".

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: "يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ثم رفع يديه وقال: اللهم هل بلغت؟".

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ يقول: "من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنى، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد".

وقد جرت سُنّة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها.

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال: مهلاً، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقيل له: هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا.

وخصّ سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن، بالجلد وعلى القريب بتغريب عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإن سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا -وإن كان عامّا في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنى خاصة، لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم بهذا الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة إلى رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيئًا كثيرًا نقاص العقول كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.

وفي النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربه تعالى في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد والحكمة الزجر.

وحد المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى، فإنه يفسد فسادًا لا يرجى له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنة مفعول به؟ على قولين، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما.

والذين قالوا: لا يدخل الجنة احتجوا بأمور:

منها: أن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة ولد زنية" فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير ألا يجيء منه خير أبدًا، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟

قالوا: والمفعول به شر من ولد الزنى، وأخزى وأقبح وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيرًا قيّض الله له ما يفسده عقوبة له، وقلَّ أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان، ولا يوفق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

والتحقيق في المسألة أن يُقال: إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب، ورزق توبة نصوحًا وعملاً صالحًا، وكان في كبره خيرًا من صغره، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات، وصدق الله في معاملته، فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه والسحر والكفر وغير ذلك، فلا تقصر عن محو هذا الذنب، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أن يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب.

وقد قال تعالى: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[1].

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان في كبره شرّا مما كان في صغره: لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ولا استدراك ما فات ولا أبدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبةً له على عمله، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

إذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبةً لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله:

واعلم أن لسوء الخاتمة –أعاذنا الله منها– أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام؟ فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه

---

[1] الآية: ٥٣ من سورة الزمر.

تذكرة، ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال: ويروى أن بعض رجال الناس نزل الموت به، فجعل ابنه يقول: قل لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له قل لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات.

قال عبد الحق: وقيل لآخر ممن أعرفه –قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

قال: وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية ده يازده ده وازده، تفسيره: عشرة بأحد عشر.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول:

* أين الطريق إلى حمام منجاب؟ *

قال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقّة ويقول:

يا رُبَّ قائلة يومًا، وقد تعبت:

كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

فبينما هو يومًا يقول ذلك إذا بجارية أجابته من طاق:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها

حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[1].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله تعالى منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم به قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارة، على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: لقد سبيت لبي، وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، قال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطحٍ كان في الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفات دينه.

قال: ويروى أن رجلاً علق شخصًا فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه، وتمنع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضربه له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغَّبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الريبة، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس أسقط يده، وعاد أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

يا سلم يا راحة العليل

ويا شفا المدنف النحيل

---

[1] الآية: ١١٠ من سورة الأنعام.

رضاك أشهى إلى فؤادي

من رحمة الخالق الجليل

فقلت له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعة صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة.

فصل: عقوبة اللواط:

* ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

وقد اختلف الناس: هل هو أغلظ عقوبة من الزنى، أو الزاني أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء؟ على ثلاثة أقوال:

فذهب أبو بكر الصدّيق وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهري وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد -في أصح الروايتين عنه- والشافعي في أحد قوليه- إلى أن عقوبته أغلظ من عبوة الزنى، وعقوبته القتل على كل حال، محصنًا كان أو غير محصن.

وذهب عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي -في ظاهر مذهبه- والإمام أحمد -في الرواية الثانية عنه- وأبو يوسف -ومحمد- إلى أن عقوبته وعقوبة الزاني سواء.

وذهب بالحاكم وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

قالوا: لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسول الله ﷺ فيها حدّا مقررًا، فكان فيه التعزير، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

قالوا: ولأنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها.

قالوا: ولأنه لا يسمى زانيًا لغةً ولا شرعًا ولا عرفًا، فلا يدخل في النصوص الدالة على حد الزانين.

قالوا: وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبيعيًا اكتفى بذلك الوازع من الحد، وإذا كان في الطباع تقاضيها جعل في الحد بحسب اقتضاء الطباع لها، ولهذا جعل الحد في الزنى والسرقة وشرب المسكر دونه أكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

قالوا" وطرد هذا، لأنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله سبحانه الطباع على النفرة من وطء الرجل رجلاً مثله أشد نفرة، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى، فإن الداعي فيه من الجانبين.

قالوا: ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد، كما إذا تساحقت المرأتان، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى.

قال أصحاب القول الأول: وهو جمهور الأمة، وحكاه غير واحد إجماعًا للصحابة، ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

قالوا: ولم يبتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحدًا غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، من وطئه، فإنه إذا وطئه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد أو ربما ينتفع به في آخرته.

قالوا: والدليل على هذا أ ن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفا، وحتم قتل اللوطي حدّا كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد "أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنكح كما تُنكح المرأة، فكتب إلى أبي بكر الصديق ﷺ ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم، فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه".

وقال عبد الله بن عباس: "ينظر أعلى بناء في القرية، فيرمى اللوطي منها منكبًا، ثم يتبع بالحجارة".

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة قوم لوط، وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ أنه قال: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"[١] رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده على شرط البخاري.

وقالوا: وثبت عنه ﷺ أنه قال: "لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط" ولم يجئ عنه ﷺ لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية، وأكده ثلاث مرات، وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع.

قالوا: ومن تأمل قوله سبحانه: **{وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً}**[٢]، وقوله في اللواط: **{أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}**[٣] تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكَّر الفاحشة في الزنى، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرَّفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها، بحيث لا يتصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: **{وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ}**[٤] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: **{مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}** ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى، فقال: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}**[٥].

ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، ومن قضاء الوطر ولذة الاستمتاع، وحصول المودة

---

[١] أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والدارقطني والحاكم والضياء عن ابن عباس وصححه الألباني صحيح الجامع الصغير (٦٤٦٥).

[٢] الآية: ٣٢ من سورة الإسراء.

[٣] الآية: ٨٠ من سورة الأعراف.

[٤] الآية: ١٩ من سورة الشعراء.

[٥] الآية: ٨١ من سورة الأعراف.

والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله، وتربي عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله.

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركَّبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قُلبوا هم، ونُكسوا في العذاب على رءوسهم.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال: **{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}**[١].

فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى؟.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: **{وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ}**[٢].

ثم أكد سبحانه عليهم بوصفين في غاية القبح فقال: **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}**[٣].

وسماهم مفسدين في قول نبيهم: **{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}**[٤].

وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم: **{إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ}**[٥].

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له: **{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}**[٦].

---

[١] الآية: ٨١ من سورة الأعراف.

[٢] الآية: ٧٤ من سورة الأنبياء.

[٣] الآية: ٧٤ من سورة الأنبياء.

[٤] الآية: ٣٠ من سورة العنكبوت.

[٥] الآية: ٣١ من سورة العنكبوت.

[٦] الآية: ٧٦ من سورة هود.

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطًا لما سمعوا بأنه قد طرق أضياف هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: **{يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}**.

ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفًا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: **{يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}**[1].

فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: **{قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}**[2].

فنفث نبي الله نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب فقال: **{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}** فنفس له رسل الله وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهوِّن عليك، فقالوا: **{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ}**[3] وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا: **{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ}**.

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: **{أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}**[4].

فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتُلعت من أصلها، ورُفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد على الرب الجليل، إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: **{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}**[5].

فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}[6].

---

[1] الآية: ٧٨ من سورة هود.

[2] الآية: ٧٩ من سورة هود.

[3] الآية: ٨١ من سورة هود.

[4] الآية: ٨١ من سورة هود

[5] الآية: ٨٢ من سورة هود.

[6] الآيات: ٧٥ – ٧٧ من سورة الحجر.

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذة آلامًا، فأصبحوا بها يُعذّبون.

مآرب كانت في الحياة لأهلها

عِذابًا فصارت في الممات عَذابا

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلاً، وعُذبوا طويلاً، رتعوا مرتعًا وخيمًا فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويُقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون: **{اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**[1].

وقد قرَّب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفًا لهم أن يقع الوعيد: **{وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}**[2].

فيا ناكحي الذكران يهنيكم البشرى

فيوم معاد الناس إن لكم أجرا

كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا

فإن لكم زفرًا إلى الجنة الحمرا

فإخوانكم قد مهّدوا الدار قبلكم

وقالوا إلينا عجِّلوا، لكم البشرى

وها نحن أسلافٌ لكم في انتظاركم

سيجمعنا الجبّار في ناره الكبرى

فلا تحسبوا أن الذين نكحتمو

يغيبون عنكم، بل ترونهم جهرا

ويلعن كلا منكما بخليله

ويشفى به المخزون في الكرة الأخرى

يعذب كل منهما بشريكه

كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

---

[1] الآية: ١٦ من سورة الطور.

[2] الآية: ٨٣ من سورة هود.

فصل: عقوبة اللواط وعقوبة الزنى:

* في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى.

* أما قولهم: إنها معصية لم يجعل الله فيها حدّا معينًا، فجوابه من وجوه:

أحدها: أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتمًا، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة.

والثاني: أن هذا ينقض عليكم بالرجم، فإنه إنما أثبت بالسنة.

فإن قلتم: بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه.

قلنا: فينقض عليكم بحد شارب الخمر.

والثالث: أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف؟

* **وأما قولكم:** إنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركب الله على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة؟ فجوابه من وجوه:

أحدها: أنه قياس فاسد الاعتبار، مردود بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه.

والثاني: أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي فتنته تربوا على كل فتنة، على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة، أو سبى ذلك عقل عاشق، أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه؟ فليس في القياس أفسد من هذا.

الثالث: أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود -في أحد القولين- وهو القتل بكل حال محصنًا كان أو غير محصن، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث.

وقد روى أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب قال "لقيت عمي ومعه الراية، فقلت: إلى أين تريد؟ بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله".

قال الترمذي: هذا حديث صحيح، قال الجوزجاني: عم البراء اسمه الحارث بن عمرو.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : "من وقع على ذات محرم فاقتلوه"[1].

---

[1] ذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (جـ٢/ ٢٠٧٨) وقال: ضعيف.

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها فقال: احبسوه وسلوا من ههنا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألوا عبد الله بن مطرف، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف"[1].

وفيه دليل على القتل بالتوسيط، وهذا دليل مستقل في المسألة، وأن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل، دليله: من وقع على أمه أو ابنته، كذلك يقال في وطء ذوات المحارم، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال، فكان حده القتل كاللوطي.

والتحقيق: أن يستدل على المسألتين بالنص، والقياس يشهد لصحة كل منهما، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعليه الحد، وإنما اختلفوا في صفة الحد، هل هو القتل بكل حال، أو حده حد الزاني على قولين:

فذهب الشافعي ومالك وأحمد، في إحدى روايتيه أن حده حد الزاني.

وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال.

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابهم باسم النكاح عالمًا بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده؛ فإنه رأى في ذلك شبهة مسقطة للحد.

ومنازعوه يقولون: إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظًا وشدة، فإنه يرتكب محذورين عظيمين: محذور العقد، ومحذور الوطء، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور الزنى؟

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

أحدها: يجب به الحد، وهو قول الأوزاعي، فإن فعله أعظم جرمًا وأكبر ذنبًا انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة.

فصل: واطء البهيمة:

* وأما واطئ البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه، وهو قول إسحاق.

والقول الثاني: حكمه حكم الزاني، يجلد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان محصنًا، وهذا قول الحسن.

---

[1] ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٥٥٢٤) معزوّا إلى الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان.

والقول الثالث: أن حكمه حكم اللوطي، نص عليه أحمد، فيخرج على الروايتين في حده، هل هو القتل حتمًا أو هو كالزاني؟

والذين قالوا "حده القتل" احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : "من أتى بهيمة فاقتلوه، واقتلوها معه"[1].

قالوا: ولأنه وطء لا يباح بحال؛ فكان فيه القتل كحد اللوطي.

ومن لم ير حدّا قالوا: لم يصح فيه حدي، ولو صح لقلنا به، ولم يحل لنا مخالفته.

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة، فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك.

وقال الطحاوي: الحديث ضعيف، وأيضًا فراويه ابن عباس، وقد أفتى بأنه لا حد عليه، قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس، كما تقدم.

فصل: اللواط والسحاق:

* وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين فمن أفسد القياس، إذًا لا إيلاج هناك، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج، على أنه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة: "إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان" ولكن لا يجب الحد بذلك، لعدم الإيلاج، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام، كزنى العين واليد والرجل والفم.

وإذا ثبت هذا: فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى: **{إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}**[2] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر، يستتاب كما يستتاب المرتد، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم.

---

[1] صححه الألباني انظر صحيح ابن ماجه (جـ٢/ ٢٠٧٨).

[2] الآية: ٣٠ من سورة المعارج.

فصل: دواء اللواط:

فإن قيل: فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال؟ ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه؟ إن لامه لائم التذ بملامه ذكرًا لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عذله، وسار به في طريق مطلوبه، وينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله:

وقف الهوى بي حيث أنت، فليس
لي متأخَّر عنه ولا متقدَّمُ
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدًا
ما من يهون عليك ممن يكرمُ
أشبهت أعدائي، فصرت أحبهم
إذ كان حظي منك حظي منهمُ
أجد الملامة في هواك لذيذةً
حبّا لذكرك، فليلمني اللوَّمُ

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طلب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأس "ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله".

والكلام في دواء داء تعلّق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزوله.

وكلاهما يسير على من يسره الله عليه، ومتعذر على من لم يعنه الله، فإن أَزِمَّة الأمور بيديه.

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

منافع غض البصر:

* **غض البصر**، كما تقدم، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعل فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه؛ فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده عن الله، وليس على القلب شيء أرض من إطلاق البصر، فإنه يورث الوحشة بين العبد وربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يلبس القلب نورًا، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغضّ البصر، قال: **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}**[1] ثم قال إثر ذلك: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}**[2].

أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بين الحق والباطل، والصادق والكاذب.

وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال، لم تخطئ له فراسة، وكان شجاعًا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه؛ فإذا غضّ بصره عن محارم الله عوّضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تُنال ببصيرة، فقال تعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[3].

فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة؛ فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب، كما قال القائل:

---

(1) الآية: ٣٠ من سورة النور.

(2) الآية: ٣٥ من سورة النور.

(3) الآية: ٧٢ من سورة الحجر.

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران؟

وقال الآخر:

قالوا: جننت بمن تهوى فقلت لهم:

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه

وإنما يصرع المجنون في الحين

السابعة: أنه يورث ثباتًا وشجاعة وقوة، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: "الذي يخالف هواه، يفرق الشيطان من ظله".

وضد هذا تجد في المتبع لهواه –من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها– ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه.

وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذل قرين معصيته، فقال تعالى: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}**[1].

وقال تعالى: **{وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[2].

والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن.

وقال تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}**[3].

أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح.

وفي دعاء القنوت: "إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت" ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسدُّ على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليها حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب.

---

(1) الآية: ٨ من سورة المنافقون.

(2) الآية: ١٣٩ من سورة آل عمران.

(3) الآية: ١٠ من سورة فاطر.

فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، تلك الزفرات والحرقات، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من النار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته.

التاسعة: أنه يفرغ للفكرة في مصالحة والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه.

قال تعالى: **{وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}**[1].

وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر نطلعك على ما وراءها:

منع تعلق القلوب:

* **الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب:** اشتغال القلب بما يصده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضرّ عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب، لم يجد بدّا من عشق الصور.

* **وشرح هذا:** أن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه.

---

[1] الآية: ٢٨ من سورة الكهف.

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه.

الثاني: قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك، فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على أشياء لا تنفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون منهم: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**[1].

وهذا هو الذي ينتفع بعلمه، وينتفع به الناس، وضده لا ينتفع به غيره.

ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره، والثاني قط طفئ نوره، فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته، والثالث يمشي في نوره وحده.

فصل: توحيد المحبوب:

* إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة إلى محبته، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها.

والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، إذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أ، يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده لا يحظيه بقربه، ويعده كاذبًا في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده.

فليختر العبد إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه.

---

[1] الآية: ٢٤ من سورة السجدة.

بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو المردان؛ أو بمحبة النسوان، أو محبة العشراء والإخوان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا من كان، كما قيل:

أنت القتيل بكل من أحببته

فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه، قال تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}**[1].

فصل: خاصية التعبد:

* **وخاصية التعبد:** الحب مع الخضوع، والذل للمحبوب، فمن أحب محبوبًا وخضع له فقد تعبَّد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب ويقال له التتيم أيضًا، فإن أول مراتبه العلاقة، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب.

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم

ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر:

أعلاقة أم الوليد بعيد ما

أفنان رأسك كالثغام المخلس

ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب، قال الشاعر:

تشكي المحبون الصبابة، ليتني

تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها

فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزومًا لا ينفك عنه، ومنه سمي الغريم غريمًا، لملازمته صاحبه، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً}[2].

---

[1] الآية: ٢٣ من سورة الجاثية.

[2] الآية: ٦٥ من سورة الفرقان.

وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقل أن تجده في أشعار العرب.

ثم العشق، وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا يطلق في حقه.

ثم الشوق، وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر: "أنه صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي ﷺ يدعو بهن: اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين"[١].

وفي أثر آخر: "طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا".

وهذا هو المعنى الذي عبّر عنه النبي ﷺ بقوله: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه"[٢].

وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: **{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}**[٣].

لما علم سبحانه وتعالى شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه، وضرب لهم أجلاً وموعدًا للقائه، وتسكن نفوسهم به، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة الحقيقة، ولا حياة أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**[٤] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، ومن طيب المأكل والملبس، والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه

---

[١] أخرجه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير.

[٢] حديث صحيح أخرجه أحمد والشيخان والترمذي عن النسائي عن عائشة وعن عبادة.

[٣] الآية: ٥ من سورة العنكبوت.

[٤] الآية: ٩٧ من سورة النحل.

يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: ما تقرب عبدي إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه".

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي -الذي حرام على غليظ الطبع كسيف القلب فهم معناه والمراد به- حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبًا لله، فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبته لله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى، ومالكًا لزمام قلبه مستوليًا على روحه استيلاء المحبوب على محبة الصادق في محبته، التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له.

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه، فالباء ههنا للمصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية لا علمية محضة.

وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها، كما قال بعض المحبين:

خيالك في عيني، وذكرك في فمي
ومثواك في قلبي، فأين تغيب؟

وقال آخر:

ومن عجبي أني أحن إليهم
فأسأل عنهم من لقيت، وهم معي
وتطلبهم عيني، وهم في سوادها
ويشتاقهم قلبي، وهم بين أضلعي

وهذا ألطف من قول الآخر:

إن قلت: غبت، فقلبي لا يصدقني

إذ أنت فيه مكان السر لم تغب

أو قلت: ما غبت، قال الطرف: ذا كذب

فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه، وربما تمكنت منه المحبة، حتى يصير أدنى إليه من نفسه، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه، كما قال:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقال آخر:

يراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة، ويجلبان غليه الحب والبغض، فيستعمل اليد والرجل، فإذا كان سمع العبد بالله، وبصره بالله كان محفوظًا في آلات إدراكه، وكان محفوظًا في حبه وبغضه، فحفظ في بطشه ومشيه.

وتأمل كيف اكتفى اسمع والبصر واليد والرجل عن اللسان، فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة، وكذلك حركة اليد والرجل التي لا بد للعبد منهما، فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار؟ وقد يستغني العبد عنها إلا حيث أمر بها.

وأيضًا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح، فإنه ترجمانه ورسوله.

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله: "كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، تحقيقًا لكونه مع عبده، وكون عبده به في إدراكاته، بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله.

وتأمل كيف قال: "فبي يسمع، وبي يبصر" ولم يقل: فلي يسمع ولي يبصر، وربما يظن الظنان أن اللام أولى بهذا الموضع، إذ هي أدل على الغاية، ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخص من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط، إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة، فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم، وإنما الباء ههنا للمصاحبة، أي إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه معه، كقوله في الحديث الآخر "أنا مع عبدي

ما ذكرني وتحركت بي شفتاه"[1] وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى: {**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا**}[2] وقول النبي ﷺ : "ما ظنك باثنين الله ثالثهما" وقوله تعالى: {**وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**}[3] وقوله: {**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**}[4] وقوله: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[5] وقوله: {**قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**}[6] وقوله تعالى لموسى وهارون: {**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**}[7].

فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعية دون اللام، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت عليه المخاوف في حقه، فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير، ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان، فلا همَّ مع الله، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء، فيصير قلبه حينئذ كالحوت، إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه.

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه، فقال: "ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب بمحابي فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به ويستعيذني أن يناله، وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته، فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه؛ بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده.

---

[1] صحيح أخرجه أحمد (جـ٢ ص٥٤٠) وابن ماجه (جـ٢/ ٣٧٩٢) والبغوي في شرح السنة (جـ٥/١٢٤٢) وابن حبان (جـ٢ ص٤٥ – موارد الظمآن) والحاكم (جـ١ ص٤٩٦) انظر صحيح الأحاديث القدسية (١٩٧: ١٩٩).

[2] الآية: ٤٠ من سورة التوبة.

[3] الآية: ٦٩ من سورة العنكبوت.

[4] الآية: ١٢٨ من سورة النحل.

[5] الآية: ٤٦ من سورة الأنفال.

[6] الآية: ٦٢ من سورة الشعراء.

[7] الآية: ٤٦ من سورة طه.

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأولِ
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدًا لأول منزلِ

فصل: آخر مراتب الحب:

* **ثم التتيم**، وهو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحب لمحبوبه، يقال: تيمه الحب إذا عبده، ومنه: تيم الله، أي عبد الله، وحقيقة التعبد: الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: طريق معبد أي مذلل قد ذللته الأقدام؛ فالعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشراف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية، فلا منزل له أشرف منها.

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام الدعوة إليه، ومقام التحدي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال سبحانه: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً}**[1].

وقال: **{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ}**[2]، وقال: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا}**[3].

وفي حديث الشفاعة: "اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته، و كمال مغفرة الله له، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه.

قال تعالى: **{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**[4].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك.

---

[1] الآية: ١٩ من سورة الجن.

[2] الآية: ٢٣ من سورة البقرة.

[3] الآية الأولى من سورة الإسراء.

[4] الآيات: ١٣٠ – ١٣٣ من سورة البقرة.

الشرك في المحبة:

* وأصل الشرك بالله، الإشراك في المحبة كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ}[1].

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندّا يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبّا لله، فإنهم وإن أحبوا الله، لكن لما شركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة، كما تقدم.

ولما كان مراد الله في خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وإفراد أحدهما عن الآخر فقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[2].

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ}[3].

وقال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[4].

وقال سبحانه في الإفراد: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً}[5].

وقال تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[6].

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتخذ وليّا من دون الله.

---

[1] الآية: ١٦٥ من سورة البقرة.

[2] الآية: ٣ من سورة يونس.

[3] الآية: ٤ من سورة السجدة.

[4] الآية: ٥١ من سورة الأنعام.

[5] الآيتان: ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر.

[6] الآية: ١٠ من سورة الجاثية.

فهذا لون وذاك لون، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد، وأهل الإشراك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* **والمقصود:** أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها؛ فإن محبة الرسول -بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء- لا يتم إلا بها، إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان..."[1].

* وفي لفظ الصحيحين: "لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار".

وفي الحديث الذي في السنن: "ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبّا لصاحبه"[2].

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله تعالى وموجباتهم، وكلما كانت قوية كان أصلها كذلك.

فصل: أنواع المحبة:

* وههنا أربعة أنواع من المحبة، يجب التفريق بينهما، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما.

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين، وعبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

---

[1] صححه الألباني معزوّا لأبي داود والضياء عن أبي أمامة، انظر صحيح الجامع الصغير.

[2] صححه الألباني معزوّا للبخاري في "الأدب المفرد" وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أنس رضي الله عنه، صحيح الجامع الصغير.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه: وهو المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما تلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}**[1]، وقال تعالى: **{رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}**[2].

فصل: كمال المحبة:

* ثم الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ : "إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً"[3].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله"[4].

وقد حديث آخر: "إني أبرأ إلى كل خليل من خلته".

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفُدي الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة بين يديه المناجاة، وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: "ولا يبدل القول لدي، هي خمس في الفعل، وهي خمسون في الأجر".

---

[1] الآية: ٩ من سورة المنافقون.

[2] الآية: ٣٧ من سورة النور.

[3] ذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١٥٣٠) معزوّا لابن ماجه عن ابن عمرو وقال: موضوع.

[4] حديث صحيح عن ابن مسعود، وبنحوه لأحمد والبخاري عن ابن الزبير، والبخاري عن ابن عباس.

فصل: المحبة والخلة:

* وأما ما يظنه بعض المغالطين -أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ حبيب الله- فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب وغيرهم.

وأيضًا فإن الله سبحانه: {يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[1]، و {يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[2] ، و {يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[3] ، و {يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[4].

والشاب التائب حبيب الله، وخلته خاصة بالخليلين، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ.

فصل: إيثار الأعلى:

* وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصة من مكروه.

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتم هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك، بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب، بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وفق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه، فيقهر الغالب الضعيف، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته، وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه ولا شهوته إلا تناوله، ويقدم شهوته على

---

[1] الآية: ٢٢٢ من سورة البقرة.

[2] الآية: ١٤٦ من سورة آل عمران.

[3] الآية: ١٤٨ من سورة آل عمران.

[4] الآية: ٤٢ من سورة المائدة.

عقله، وتسميه الأطباء: عديم المروءة، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له.

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك. وقوة النفس وشرفها وشجاعتها فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة.

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهي وهو الذي يسمى الكف؛ وهو متعلق الثواب والعقاب، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك وهل هو أمر وجودي أو عدمي؟ والتحقيق أنه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمي، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي.

فصل: إيثار الأنفع:

* وكل واحد من الفعل والترك والاختيار بين إنما يؤثره الحي لما فيه من حصول المنفعة التي يلتذ بحصولها، أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله، ولهذا يقال: شفى صدره، وشفى قلبه، وقال:

هي الشفاء لدائي لو ظفرت بها

وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطًا قبيحًا، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها، ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب، وخاصة العقل الناظر في العواقب، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة؛ وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقض بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: "فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله: رأيتهم جميعًا إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب وهذا بالتجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير

موصلة إليه بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلة إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء.

فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته كل شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه؛ فليس للعبد أنفع من هذه الطرق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق.

فصل: أقسام المحبوب:

* والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، والمحبوب لغيره، لا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب فهو محبوب لغيره، وليس شيء يحب لذاته إلا الله وحده، وكل ما سواه ما يُحَبُّ فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه، وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والمحبة التي لا تنفع بل قد تضر.

فاعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه و كراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشد منافاة لمحابه كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته، فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثره عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء الكريه.

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}[1].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحت الراحة والدعة والرفاهية، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات المحبوب، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه، فإن ذلك قد لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه، فإن ذلك قد يكون شرّا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها، وإن كانت منقطعة.

فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه، فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه، قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان –وهما معترك الابتلاء والامتحان– فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منها، وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين، وهو إلى هذا مرة، وإلى هذا مرة، وههنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا، فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت: حي على الفلاح، عند الصباح يحمد القوم السرى، وفي الممات يحمد العبد التقى، فإن اشتد ظلام ليل المحبة، وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول: يا نفسي اصبري فما هي إلا ساعة ثم تنقضي، ويذهب هذا كله ويزول.

فصل: الحب أصل كل عمل:

* وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة أو شبهة تمنع كمال التصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر، إن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكس الراغب، فلا تصح الموالات إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ}[2].

---

[1] الآية: ٢١٦ من سورة البقرة.

[2] الآيات: ٧٥ – ٧٧ من سورة الشعراء.

فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هـذه المعـاداة، فإنـه ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[1].

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّـهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[2].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبـه يتوارثهـا الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الحنفـاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

كلمة التوحيد:

* وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقـات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميـع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عـذاب القبـر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسـعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر عن دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسنة "ومَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة".

روح كلمة التوحيد:

* وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسـمه، وتعالى جده، ولا إله غيره: بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلـك: مـن التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجى سواه، و لا يتوكل إلا عليـه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينظر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يعبد إلا

---

[1] الآية: ٤ من سورة الممتحنة.

[2] الآيات: ٢٦ – ٢٨ من سورة الزخرف.

إياه بجميع أنواع العبادة؛ فهذا تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، فمحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ}**[1].

فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ : "إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحًا"[2] فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش، قال تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}**[3].

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا به، وعنده مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**[4]. وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالى: **{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}**[5].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمرّ من ضيق الصدر؟

وقال تعالى: **{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**[6].

---

[1] الآية: ٣٣ من سورة المعارج.

[2] أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان عن طلحة بلفظ أتم منه وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير.

[3] الآيتان: ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات.

[4] الآية: ٩٧ من سورة النحل

[5] الآية: ١٢٥ من سورة الأنعام.

[6] الآيات: ٦٢ – ٦٤ من سورة يونس.

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدرًا، وأسـرهم قلبًا، هذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

وقال النبي ﷺ : "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر"[١]، هذا قوله ﷺ : "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة"[٢].

ومن هذا قوله –وقد سألوه عن وصاله في الصوم: "إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني"[٣] فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب والحسى، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به ولا يشاركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الشراب وتلهيها عن الزادِ
لها بوجهك نورٌ تستضيء به
ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها
روح اللقاء، فتحيا عند ميعادِ

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد، وهو إليه أحوج، كان تألمه بفقده أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له وأشده عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، تتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذه منزلة السركان المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ.

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هنا أشد بأضعاف مضاعفة، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟ فلو

---

[١] سبق الإشارة إلى ضعفه، انظر ضعيف الجامع الصغير (٧٩٩).

[٢] صحيح رواه الشيخان أحمد والنسائي والترمذي.

[٣] صحيح رواه الشيخان وأحمد عن غير واحد من الصحابة.

قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين الضعيفين اللذيْن لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أُخذ منك، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوضٌ

وما من الله إن ضيعته عوض

وفي أثر إلهي: "ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء".

فصل: المحبة المحمودة والمحبة المذمومة:

* ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها، وما لا تصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوها، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة، وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى: **{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه}**[1]، وقوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه}**[2].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله التي يسوي المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها.

والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها.

فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار، ومن دخلها بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

---

[1] الآية: ٥٤ من سورة المائدة.

[2] الآية: ١٦٤ من سورة البقرة.

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة و لوازمها، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة: دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، والقرآن جاء في شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال: والذي بعثك بالحق لأنت أحب إليَّ من نفسي، قال: الآن يا عمر".

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه.

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، ويكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله.

والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه، وقد يُحَبُّ بغيره، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له.

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[1]، والتأله: هو المحبة والطاعة والخضوع.

فصل: الحب أصل كل حركة:

* وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي عليها الفاعلية والغائية. وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركات اختيارية إرادية. وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاصر

---

[1] الآية: ٢٢ من سورة الأنبياء.

المحرك له، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرك، فهو أصل الحركتين.

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين، وهي تابعة للإرادة والمحبة.

والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كانت له شعور بالحركة فهي الإرادية، وإن لم يكن له شعور بها، فإما أن تكون على وفق طبعه أو لا، فالأولى هي الطبيعية، والثانية هي القسرية.

إذا ثبت هذا فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فإنما هي بواسطة الملائكة والمدبرات أمرًا والمقسمات أمرًا كما دل على ذلك نصوص من القرآن والسنة في غير موضع، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة، فإن الله وكل بالرحم ملائكة، وبالقطر ملائكة، وبالنبات ملائكة، وبالرياح ملائكة، وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة، كاتبين عن يمينه وشماله، وحافظين من بين يديه ومن خلفه، ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها في الجدنة والنار، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة، ووكل بالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به، وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله، ووكل بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها، وملائكة بالنار كذلك.

فأعظم جند الله الملائكة، ولفظ "الملَك" يشعر بأنه رسول منفذ أمر غيره وليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه، قال تعالى إخباراً عنهم: **{وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً}**[1].

وقال تعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}**[2].

وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليقة كما تعالى: **{وَالصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً}**[3].

---

[1] الآية: ٦٤ من سورة مريم.

[2] الآية: ٢٦ من سورة النجم.

[3] الآيات: من ١: ٣ من سورة الصافات.

وقال تعالى: {وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً}[1].

وقال تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}[2].

وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (التبيان في أقسام القرآن).

* وإذا عرفت ذلك فجميع تلك المحبات والمحركات والإرادات والأفعال هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها، فلولا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات، ولا مرت السحب الحاملات، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات، ولا اضطربت أمواج الزاخرات، ولا تحركت المدبرات والمقسمات، و لا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات، فسبحان مَنْ : {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}[3].

فصل: الحب لله وحده:

* فإذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون لحركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإيداعه وحده.

ولهذا قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[4] ولم يقل سبحانه: لما وجدتا وكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان في العالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر، والعلو عليه، وتفرده دونه بإلهيته، إذ الشركة نقص في كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما، ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما

---

[1] الآيات من ١ : ٦ من سورة المرسلات.

[2] الآيات من ١ : ٥ من سورة النازعات.

[3] الآية: ٤٤ من سورة الإسراء.

[4] الآية: ٢٢ من سورة الأنبياء.

إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيها، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان، والشول: إذا كان فيه فحلان.

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض.

فصلاح السموات والأرض واستقامتها وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى.

قال الله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[1]

وقال تعالى: **{أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}**[2].

وقال تعالى: **{قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}**[3].

فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: **{وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**[4].

قال شيخنا ﷺ : والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونها من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدًا له، قال: ويدل على هذا وجوه:

منها: قوله تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}**[5].

أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟.

---

[1] الآيات من ٩١ : ٩٣ من سورة المؤمنون.

[2] الآيات من ٢١ : ٢٣ من سورة الأنبياء.

[3] الآية: ٤٢ من سورة الإسراء.

[4] الآية: ٩١ من سورة المؤمنون.

[5] الآية: ٥٧ من سورة الإسراء.

الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: {**لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**}[1]، وهذا اللفظ إنما يُستعمل في التقرب، كقوله تعالى: {**اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**}[2]. وأما في المغالبة فإنما يستعمل بـ "على" كقوله تعالى: {**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**}[3].

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: {**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ**}[4] وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟.

فصل: آثار المحبة:

* والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة: من الوجد والذوق والحلاوة، والشوق والأنس، والاتصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصد والهجران، والفرج والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان السعادة، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان الشقاوة.

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم؛ فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها، وذلك من ظلم الإنسان لنفسه، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم، وإما عالمة بما في محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها على أمرين: اعتقاد فاسد، وهو مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس؛ فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضًا فتنفق شبهة وشهوة، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلى حصوله، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان والغلبة لأقواهما.

---

[1] الآية: ٤٢ من سورة الإسراء.

[2] الآية: ٣٥ من سورة المائدة.

[3] الآية: ٣٤ من سورة النساء.

[4] الآية: ٤٢ من سورة الإسراء.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها؛ فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد.

قال تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[1].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به عمل صالح.

وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها.

والفرق بينهما أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه.

سيعلم يوم العرض أي بضاعة

أضاع، وعند الوزن ما كان حصّلا

فصل: المحبة أصل كل دين:

* وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم، فهي أصل كل دين سواء أكان حقّا أو باطلاًن فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقًا وعادة، ولهذا فسر الخلق بالدين في وقله تعالى: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[2].

وقال الإمام أحمد عن ابن عيينه قال ابن عباس: "لعلى دين عظيم".

---

[1] الآيات من ١٢٠ : ١٢١ من سورة التوبة.

[2] الآية: ٤ من سورة القلم.

وسُئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"[1].

والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل، كما يُقال: دنته فدان، أي قهرته فذل.

قال الشاعر:

هو دان الرباب إذ كرهوا الد

ين فأضحوا بعزة وصيال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى، كما يقال: دنت الله، ودنت لله، وفلان لا يدين الله دينًا، ولا يدين الله بدين، فدان الله: أي أطاع الله وأحبه وخافه، ودان لله: تخشع له وخضع وذلك وانقاد.

والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء، بخلاف الدين الظاهر، فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر.

وسمى الله سبحانه يوم القيامة (يوم الدين) فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرّا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

وقال تعالى: **{فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**[2].

أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين مقهورين ولا مجزيين.

وهذه الآية تحتاج إلى تفسير، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم، فكل ملزوم دليل على لزمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقرّوا بأن لهم ربّا قاهرًا متصرفًا فيهم، كما سيميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما أن لا يقرّوا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه كفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين، عند المحتضر، وهم يعاينون موته، أي: فهلا تردون الروح

---

[1] صحيح أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة.

[2] الآيتان: ٨٦ ، ٨٧ من سورة الواقعة.

إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف، ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر، تمضي عليهم أحكامه، وتنفذ أوامره، وهذا غاية التعجيز لهم، إذ بيَّن عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيالها من آية دالة على ربوبيته سبحانه، ووحدانيته، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم، وجريانها عليهم.

الدين دينان:

* **والدين دينان:** دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمرًا أو جزاء، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه سبحانه وتعالى وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه كما قال النبي ﷺ : "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً"[1] فهذا دين قائم بالمحبة وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس، وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم، في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخبارًا عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه: **{إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**[2].

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي يقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضعت التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال؛ كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء –أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله **{إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي**

---

[1] صحيح أخرجه أحمد ومسلم والترمذي عن العباس بن عبد المطلب.

[2] الآيات من ٥٤ – ٥٦ من سورة هود.

بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فكيف أخاف مَن ناصيته بيد غيره، وهو قهره وقبضه وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجل الجهل وأقبح الظلم؟.

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه على صراط مستقيم، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، ولا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفصل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: "ما أصاب عبدًا قط همٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألك اللهم بكل اسمٍ هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجًا" قالوا: يا رسول الله ألا نتعلّمهن؟ قال: "بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن"[1].

وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره، وكلا الحكمين ماضٍ في عبده وكلا القضاءين عدل فيه، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية، بينهما أقرب نسب.

فصل: عشق الصور:

* ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر؛ فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم، وكما سنقرره أيضًا إن شاء الله تعالى.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا بالمرض عن طائفتين من الناس، وهم اللوطية والنساء.

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (جـ١ ص٣٩١ ، ٤٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود.

فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتُلي به أمر لا يصبر عليه إلا مَنْ صَبّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ههنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النسا، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً، بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ : "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهنّ"[1].

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابّا، وشهوة الشاب وحدّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرًا يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذلك الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبّا، كما قال الشاعر:

وزادني كلفًا في الحب أن منعت
أحب شيء إلى الإنسان ما مُنِعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنِع، ويحصل له اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

---

[1] صححه الألباني في الجامع الصغير (٣١١٩) معزوّا لأحمد والنسائي والحاكم والبيهقي في سننه عن أنس بلفظ: "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة".

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطول السواد، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: **{وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}**[1].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، و هذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلاّ منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: **{أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}**[2] وللمرأة: **{اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}**[2] وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى.

{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}[3].

وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفق الله نفردها في مصنف مستقل.

---

[1] الآية: ٣٣ من سورة يوسف.

[2] الآية: ٢٩ من سورة يوسف.

[3] الآية: ٣٣ من سورة يوسف.

فصل: عشق اللوطية:

* والطائفة الثانية، الذين حكى الله عنهم العشق: هم اللوطية، كما قال تعالى: **{وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}**[1].

فهذه الأمة عشقت فحكاه سبحانه عن طائفتين، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولا يبالي بما عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعزّ عليهم شفاؤه، وهو لعمر الله الداء العضال، والسم القتال، الذي ما علق بقلب إلا وعزّ على الورى خلاصه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام:

تارة يكون كفرًا: كمن اتخذ معشوقه ندّا يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا لا يُغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك.

وعلامة العشق الشركي الكفري: أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، و حق ربه وطاعته، قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه، وبذل له أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه -إن بذل- أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه -إن أطاعه- الفضلة التي تفضل معشوقه من ساعاته.

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابق لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قال العاشق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفات

هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه، وقد مرَّ.

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة، بل قد ملك عليه قلبه فصار عبدًا محصنًا من كل وجه لمعشوقه:

---

[1] الآيات من ٦٧ - ٧٢ من سورة الحجر.

فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله: فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إليَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله.

فصل: دواء العشق:

* **ودواء هذا الداء القتال:** أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله تعالى، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسنته أولاً، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه، وليس له داء أنفع من الإخلاص لله وهو الداء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: {**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**}[1].

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء نم العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبًا فارغًا فتمكّنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح.

أضرار العشق:

* ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

---

[1] الآية: ٢٤ من سورة يوسف.

الثاني: عذاب قلبه به، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذب به ولا بد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب

وإن وجد الهوى حلو المذاقِ

تراه باكيًا في كل حينٍ

مخافة فرقةٍ أو لاشتياقِ

فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم

ويبكي إن دنوا حذرَ الفراقِ

فتسخن عينه عند الفراق

وتسخن عينه عند التلاقي

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو أعظم من عذاب القلب.

الثالث: أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفور في كف طفل يسومها حياض الردى، والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:

ملكت فؤادي بالقطيعة والجفا

وأنت خلي البال تلهو وتلعب

فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخلي عيش المسيب المطلق.

طليق برأي العين وهو أسير

عليل على قطب الهلاك يدور

وميت يرى في صورة الحي غاديًا

وليس له حتى النشور نشور

أخو غمرات ضاع فيهن قلبه

فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له.

وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب.

وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بعد من الله، فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور؛ وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل

ناحية، واستولى عليه لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعد منه وليه ومن لا سعادة ولا فرح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه، أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه علىجنون غيره، كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم:

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه

وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما فسادًا معنويّا أو صوريّا، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسنًا منه ومن معشوقه ما في المسند مرفوعًا: "حبك الشيء يعمي ويصم" فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترى العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين، تمنع من رؤية الشيء على ما هو به، كما قيل:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة

فلما انجلت قطّعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ : "إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية".

وأما فساد الحواس ظاهرًا، فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق.

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدًا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه؛ بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة
يأتي بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى
جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة وحلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى، كما قيل:

وعش خاليًا فالحب أوله غنى
وأوسطه سقم، وآخره قتل

وقال الآخر:

تولع بالعشق حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة
فلما تمكن منها غرق

والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد مقعد المثل السائر "يداك أوكتا وفوك نفخ"[1].

---

[1] هذا مثل، وأصله أن رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يعبر على زق له قد نفخه، فلم يحسن إحكامه حتى إذا توسط البحر خرجت من زقه الريح فغرق، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له: "يداك أوكتا وفوك نفخ" فأصبح مثلاً يضرب لمن يجني على نفسه.
أوكى القربة: ربطها، كذا بهامش المطبوعة.

فصل: مقامات العاشق:

* والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

أما مقام ابتدائه، فقالوا: يجب عليه في مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا وشرعًا.

فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه -وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو بفلانة، كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون.

وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبًا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقًا لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام والأخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة والمطيبة، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة من فوق سبع سموات، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك، ولولا أن تولى الله سبحانه وتعالى براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرًا آخر.

* **والمقصود:** أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله، وتعرض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديوثًا ظالمًا، وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش -وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة- فما ظنك بالديوث، الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل، فيساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق، وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض؟ فإنه كثيرًا ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه، وكم من قتيل بطل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقرب، وكم خببت[1] امرأة على بعلها وجارية على سيدها، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه، وهو من أكبر الكبائر.

---

[1] خببت: التخبيب هو الإفساد يقال: خبب عليه زوجه أي أفسدها عليه.

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، أو أن يستام على سوم أخيه؛ فكيف بمن سعى في التفريق بين رجل وبين امرأته حتى يتصل بهما؟

وعشاق الصور ومساعدوهم من الديايثة لا يرون ذلك ذنبًا، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة، وإن لم يَرْبُ عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز من نفسه، فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه -أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفلك دمه، فياله من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة، فإن كان ذلك حقّا لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: "خذ من حسناته ما شئت" كما أخبر بذلك النبي ﷺ، ثم قال النبي ﷺ: "فما ظنكم؟" أي فما تظنون له من حسناته؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارًا، أو ذا رحم محرم، تعدد الظلم فصار ظلمًا مؤكدًا لقطيعة الرحم وإيذاء الجار، ولا يدخل الجنة قاطع رحم، ولا من لا يأمن جاره بوائقه.

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشيطان من الجن -إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك- ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر، فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيًا بالكفر غير كاره لحصول مقصده، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

* **والمقصود:** أن التعاون في هذا الباب، تعاون على الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فأمر لا يخفى، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أغراض أخرى يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بدّا، فبقي كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفًا على ظلمه، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغي، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حله، وفي استطالته على غيره، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق ظالمًا كان أو مظلومًا، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه.

* فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور، وربما حمل على الكفر الصريح، وقد تنصر جماعة ممن تنشأوا في الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح، ففتن بها ونزل عليها وسألها نفسها فقالت: هي نصرانية، فإن دخلت في ديني تزوجت بك، ففعل، فرقي في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات، ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له.

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير، أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: **{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**[1].

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه ما فيه، وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها.

والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، بأن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو يسومه سوء العذاب، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه، ولاسيما إن جاد بالوصال لغيره، فكم للعشق من قتيل من الجانبين، وكم أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل، وكم أفسد من أهل للرجل وولده، فإن المرأة إذا رأت بعها عاشقًا لغيرها اتخذت هي معشوقًا لنفسها، فيصير الرجل مترددًا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة، فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

* فعلى العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها، فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع، فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره، ولم يشتغل قلبه به ولم يحدث له ذلك، إن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله، إما خوف ديني كدخول النار وغضب الجبار واحتقاب الأوزار، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق، فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه أو ماله أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس

---

[1] الآية: ٢٧ من سورة إبراهيم.

وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه، وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق، لذلك انجذب إليه القلب بكليته ومالت إليه النفس كل الميل.

* **فإن قيل:** قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة والرم والمروءة ورقّة الحاشية ولطف الجانب؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي: إن ابنك قد عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي.

وقال بعضهم: العشق دواء أفئدة الكرام.

وقال غيره: العشق لا يصلح إلا لذي مروءة ظاهرة، وخليقة طاهرة، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع، وحسن ناصع.

وقال آخر: العشق يشجع جنان الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل، ويذل عزة الملوك، ويسكن نوافز الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له.

وقال آخر: العشق يزيل الأثقال، ويطلف الروح، ويصفي كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام، كما قال الشاعر:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم
إذا غاله من جانب الحب غائله
كريم يميت السر؛ حتى كأنه
إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يمسي سقيمًا لعلها
إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلا
لتخمد يومًا عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق.

وقال بعض الحكماء: العشق يروض النفس، ويهذب الأخلاق، وإظهاره طبيعي؛ وإضماره تكليفي.

وقال آخر: من لم يهيج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي، فهو فاسد المزاج، يحتاج إلى علاج، وأنشدوا في ذلك:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فما لك في طيب الحياة نصيب

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فأنت وعِيرٌ في الفَلاةِ سواءُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى
فقم فاعتلف تبنًا فأنت حمار

وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة: عفوا تشرفوا، واعشقوا تظفروا.

وقيل لبعض العشاق: ما كانت لو ظفرت بمن تهوى؟ فقال: كنت أمتع طرفي بوجهه، وأرواح قلبي بذكره وحديثه، وأستر منه ما لا يحب كشفه، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده، ثم أنشد:

أخلو به فأعفّ عنه تكرّمًا
خوف الديانة لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذّه
ظمأ، فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته يضرك، وإن أكثرت منه قتلك، وفي ذلك قيل:

خليلي، إن الحب فيه لذاذة
وفيه شفاء دائم وكروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره
ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير في الدنيا بغير صبابة
ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال: مر أبو بكر ﷺ بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي

متمايلاً مثل القضيب الناعم

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: من هواك؟ فتلكأت، فأقسم عليها، فقالت:

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها

قُتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها، وبعث إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم والله مات بهن كريم، وعطب بهن سليم.

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان ﷺ تستعدي على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أنفكّ أراعيه، فقال عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

* ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام، فهذا عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعد ظالمًا من لامه، ومن شعره:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتمُ

ولامكَ أقوامٌ ولومهمُ ظلمُ

فنمَّ عليكَ الكاشحون، وقبلهم

عليك الهوى قد نمّ، لو ينفع الكتمُ

فأصبحت كالهنديّ إذ مات حسرةً

على إثر هند، أو كمن شفه سقمُ

تجنب إتيان الحبيب تأثّمًا

ألا إن هجران الحبيب هو الإثمُ

فذق هجرها، قد كنت تزعم أنه

رشادٌ، ألا يا ربما كذب الزعمُ

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك وكانت جارية بارعة الجمال، وكان معجبًا بها، وكان يطلبها من امرأته، ويحرص على أن تهبها له، فتأبى،

ولم تزل الجارية في نفس عمر، فلما استُخلف أمرت فاطمة بالجارية فأُصلحت وكانت مثلاً في حسنها وجمالها، ثم دخلت على عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت معجبًا بجاريتي فلانة وسألتها فأبيت عليك، والآن قد طابت نفسي لك بها، فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه، وقال عجِّلي عليَّ بها، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبًا وقال لها: ألقي ثيابك، ففعلت ثم قال لها: على رسلك، أخبريني لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً، وكنت في رقيق العامل، فأخذني وبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة، فقال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك، قال: وهل ترك ولدًا؟ قالت: نعم، قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة، فقال: شدي عليك ثيابك واذهبي إلى مكانك، ثم كتب إلى عامله على العراق: أن ابعث إليَّ فلان ابن فلان بالبريد، فلما قدم قال له: ارفع إليَّ جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئًا إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه، ثم قال له: إياك وإياها، فلعل أباك قد ألمَّ بها، فقال الغلام: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: لا حاجة لي بها، قال: فابتعها مني، قال: لست إذًا ممن نهى النفس عن الهوى؛ فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت: أين وجدك بي يا أمير المؤمنين؟ قال: على حاله، ولقد زاد، ولم تزل الجارية في نفس عمر، حتى مات رحمه الله.

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم: من الفقه، والحديث، والتفسير، والأدب، وله قوله في الفقه، وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نفْطَويه: دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه: فقلت: كيف تجدك؟ فقال: حب من تعلم أورثني ما ترى، فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين:

أحدهما: النظر المباح.

والآخر: اللذة المحظورة.

فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فيمنعني منها ما حدثني أبي، حدثنا أبي سويد بن سعيد، حدثنا مسهر عن أبي يحيى القتاب عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: "من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة".

ثم أنشد:

انظر إلى السحر يجري في لواحظه
وانظر إلى دعج في طرفه الساجي
وانظر إلى شعرات فوق عارضه
كأنهن نِمَالٌ دَبَّ في عاج

ثم أنشد:

ما لهم أنكروا سوادًا بخديه
ولا ينكرون ورد الغصون؟
إن يكن عيب خده برد الشعر
فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له: نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر؟ فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه، ثم مات من ليلته، وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة.

ومن كلامه فيه: "من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه، وذلك أول روعات اليأس تأتي القلب وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فتأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى".

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير، فتناظرا في مسألة من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من دامت لحظاته كثرت حسراته- أحذق منك بالكلام على الفقه، فقال: لئن كان ذلك فإني أقول:

أنزّه في روض المحاسن مقلتي
وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه
يصبَ على الصخر الأصم تهدّما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري
فلولا اختلاسي وده لتكلّما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فلست أرى ودّا صحيحًا مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج: بم تفخر عليَّ؟ ولو شئت لقلت:

ومطاعم كالشهد في نغماته
قد بت أمنعه لذيذ سناته
بصبابة وبحسنه وحديثه
وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده
ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهدًا على أنه ولي بخاتم ربه وبراءته، فقال ابن سريج: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك:

وأنزه في روض المحاسن مقلتي

وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما لطفًا وظرفًا.

وذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه، وجاءته يومًا فتيا مضمونها:

يا ابن داود، يا فقيه العراق

أفتنا في قواتل الأحداق

هل عليها بما أتت من جُناحٍ

أم حلالٌ لها دم العشّاق؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين:

عندي جواب مسائل العشاق

فاسمعه من قَرِح الحشا مشتاق

لمّا سألت عن الهوى هيّجتني

وأرقت دمعًا لم يكن بمراق

إن كان معشوقًا يعذّب عاشقًا

كان المُعذَّبُ أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الأحباب، شهاب الدين محمد بن سليمان بن فهد صاحب كتاب الإنشاء: وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبًا:

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ

هن يلعبن في دم العشاق

ما على السيف في الورى من جناح

إن ثنى الحد عن دم مهراق

وسيوف اللحاظ أولى بأن تصـــ

ـــفح عما جنت على العشاق

إنما كل من قتلن شهيد

ولهذا يفنى ضنّى وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمـــد الكلـــوذاني شـــيخ الحنابلة في وقته، رحمه الله:

قل للإمام أبي الخطاب مسألة

جاءت إليك وما خلق سواك لها

ماذا على رجل رام الصلاة فمذ

لاحت لخاطره ذات الجمال لها

فأجاب تحت السؤال:

قل للأديب الذي وافى بمسألة

سَرَّت فؤادي لما أن أصخت لها

إن التي فتنته عن عبادته

خريدة ذات حسن فانثنى ولها

إن تاب ثم قضى عنه عبادته

فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيـــارة قبر رسول الله ﷺ ، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنينًا فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

شجاك نوح حمائم السدر

فأهجن منك بلابل الصدر

أم عز نومك ذكر غانية

أهدت إليك وساوس الفكر

يا ليلة طالت على دنف

يشكو السهاد وقلة الصبر

أسلمت من تهوى لحر جوى

متوقد كتوقّد الجمر

فالبدر يشهد أنني كلفٌ

مغرى بحب شبيهة البدر

ما كنت أحسبني أهيم بها

حتى بليت وكنت لا أدري

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء، وإذا به قد عاد البكاء والأنين، ثم أنشد:

أشجاك من ريا خيال زائر

والليل مستود الذوائب عاكر

واغتال مهجتك الهوى برسيسه

واهتاج مقتلك الخيال الزائر

ناديت: ريا والظلام كأنه

يم تلاطم فيه موج زاخر

والبدر يسر في السماء كأنه

ملك ترجل والنجوم عساكر

وترى به الجوزاء ترقص في الدجى

رقص الحبيب علاه سكر ظاهر

يا ليل، طلت على محب ما له

إلا الصباح مساعد ومؤازر

فأجابني: مت حتف أنفك واعلمنْ

أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال: وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده، فرأيت شابًا مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع في خده قرقين، فسلمت عليه، فقال: اجلس، من أنت؟ قلت: عبد الله بن معمر القيسي، قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، كنت جالسًا في الروضة فما راعني إلا صوتك، فبنفسي أفديك، فما الذي تجد؟ فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوت يومًا إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال، كاملة الملاحة، فوقفت عليَّ فقالت:

يا عتبة: ما تقول في وصل من تطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرًا، ولا قفوت لها أثرًا، وأنا حيران أنتقل من مكان إلى آخر، ثم صرخ وأكبَّ مغشيّا عليه، ثم أفاق، كأنما صبغت وجنتاه بورس، ثم أنشد:

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة

فيا هل تروني بالفؤاد على بعدي

فؤادي وطرفي يأسفان عليكم

وعندكم روحي وذكركم عندي

ولست ألذ العيش حتى أراكم

ولو كنت في الفردوس في جنة الخلد

فقلت: يا ابن أخي تب إلى ربك واستغفر من ذنبك، فبين يديك هول المطلع، فقال: ما أنا بسالٍ حتى يئوب القارظان، ولم أزل معه إلى أن طلع الصبح، فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزا، فلعل الله أن يكشف كربتك، فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول:

يا لرجال ليوم الأربعاء، أما

ينفك يحدث لي بعد النهى طربا

ما إن يزال غزال منه يقتلني

يأتي إلى مسجد الأحزاب منتقبا

يخبر الناس أن الأجر همته

وما أتى طالبًا للخير محتسبا

لو كان يبغي ثوابًا ما أتى صلفًا

مضمخًا بفتيت المسك مختضبا

ثم جلسنا حتى صلينا، وإذا بالنسبة قد أقبلن وليست الجارية فيهن، فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبة، ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة، فسألتهن عن الجارية، فقلن: هي ريا ابنة الغطريف السلمي، فرع عتبة رأسه إليهن وقال:

خليلي، ريا قد أجد بكورها

وسارت إلى أرض السماوة غيرها

خليلي، إني قد عشيت من البكى

فهل عند غيري مقلة أستعيرها؟

فقلت له: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل السمر، والله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى، فقم بنا إلى مسجد الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت: أيها الملأ، ما تقولون في عتبة وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب، قلت: فإنه قد رمي بداهية من الهوى، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة، فقالوا: سمعًا وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم، فأُعلم الغطريف بنا فخرج مبادرًا فاستقبلنا، وقال: حييتم يا كرام، فقلنا: وأنت فحياك، إنا لك أضياف، فقال: نزلتم أكرم منزل، ثم نادى: يا معشر العبيد، أنزلوا القوم، ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا، فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر، فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها، وأنا أدخل أخبرها، ثم دخل مغضبًا على ابنته، فقالت: يا أُبت مالي أرى الغضب في وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني، فقالت: سادات كرام، استغفر لهم النبي ﷺ، فلمن الخطبة منهم؟ فقال: لعتبة بن الحباب، قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا، إنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد، فقال: أقسمت لا أزوجنك به أبدًا، ولقد نمى إليَّ بعض حديثك معه، فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ

أقسمت فإن الأنصار لا يُردون ردًا قبيحًا، حسِّن لهم الرد، فقال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ لهم المهر، فإنهم يرجعون ولا يجيبون، فقال: ما أحسن ما قلت، ثم خرج مبادرًا، فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكن أريد مهر مثلها، فمن القائم به؟ فقال عبد الله بن معمر: أنا، فقل ما شئت، فقال: ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة عنبر، فقال عبد الله: لك ذلك كله، فهل أجبت؟ قال: أجل، قال عبد الله: فأنفذت نفرًا من الأنصار إلى المدينة، فأتوا بجميع ما طلب، ثم صنعت الوليمة، وأقمنا على ذلك أيامًا، ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين، ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا، حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منهم رجالاً، وجرح آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دمًا، فسقط إلى الأرض، وانثنى بخده، فطردت عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه، فقلنا: واعتبتاه، فسمعتنا الجارية: فألقت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة: وأنشدت:

تصبرت لا أني صبرت وإنما
أعلل النفس أنها بك لاحقه
فلو أنصفت روحي لكانت إلى الردى
أمامك من دون البرية سابقة
فما أحد بعدي وبعدك منصف
خليلاً، ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا، ودفناهما فيه، ثم رجعت إلى المدينة، فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة، فقلت: والله لآتين قبر عتبة أزوره، فأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر، فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين.

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد، وهو حديث سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه: "من عشق وعف، وكتم فمات فهو شهيد"[1] ورواه سويد أيضًا عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا، ورواه الخطيب عن الأزهري عن

---

[1] هذا حديث موضوع أنكره حفاظ الإسلام كما قال ابن القيم في هذا الكتاب في آخر فصل منه، ولا يحسبنَّ القارئ أن تحسين إسناد الحديث هنا من كلام ابن القيم ولكنه يورد حجج من يرخصون في العشق، والحديث حكم الألباني بأنه موضوع بروايته عن عائشة وعن ابن عباس، وانظر تفصيل ذلك في سلسلة الضعيفة والموضوعة برقم (٤٠٩).

المعافى ابن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه، ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبي نجيح، عن مجاهد عن ابن عباس.

وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها[1] فقال "سبحان مقلب القلوب" وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما همَّ بطلاقها قال له: "اتق الله وأمسك عليك زوجك" فلما طلقها زوَّجها الله سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سموات، فكان هو وليها وولي تزويجها من رسول الله ﷺ ، وعقد نكاحها من فوق عرش، وأنزل على رسوله ﷺ:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}[2].

وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثم أحب تلك فتزوجها وكمل بها المائة[3].

وقال الزهري: أول حب كان في الإسلام، حب النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وكان مسروق يسميها: حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو: "أرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها: أكان النبي ﷺ يقبل أهله وهو صائم؟ فقالت: لا، فقال: إن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها".

وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه، قال: كان إبراهيم الخليل عليه السلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها، وقلة صبره عنها.

وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشترى جارية رومية، فكان يحبها حبًا شديدًا، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها، وكانت تكثر من أن تقول: يا بطرون أنت قالون، تعني يا مولاي أنت جيد، ثم إنها هربت منه، فوجد عليها وجدًا شديدًا وقال:

---

[1] وهذا أيضًا في كلام من يذكرون منافع العشق وفوائده لا من كلام ابن القيم، وتدبر كلام ابن القيم بعده في جوابه عن هذه الحجج.

[2] الآية: ٣٧ من سورة الأحزاب.

[3] قصة داود هذه من الإسرائيليات لم يثبت فيها عن النبي ﷺ حديث يجب اتباعه، ورواتها ضعفاء مجروحون.

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت

فاليوم أعلم أني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير.

وقال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها، فقال: ذلك ما لا تملك.

فالجواب، وبالله التوفيق: أن الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز، والنافع والضار، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، إنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم، ونحن نذكر النافع من الحب والضار، والجائز والحرام.

المحبة النافعة:

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم لا يغفره الله، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبته.

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كان الإحسان منه، وما يخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: **{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}**[1].

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه.

---

[1] الآية: ٥٣ من سورة النحل.

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[1].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[2].

فالولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو مواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده بحسب محبته له.

ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من ولّى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من سَوَّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون أندادًا يحبه كحب الله.

قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ}[3].

وأخبر عمَّن سَوَّى بينه وبين الأنداد في الحب، أنهم يقولون في النار لمعبوديهم: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[4].

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: "لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟.

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : "لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك" أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

---

(1) الآية: ٣١ من سورة آل عمران.

(2) الآيات من ٥٤ – ٥٦ من سورة المائدة.

(3) الآية: ١٦٥ من سورة البقرة.

(4) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الشعراء.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم، وكل ما منه إلى عبده لامؤمن يدعو إلى محبته، مما يحب العبد ويكره فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله وإماتته وإحياؤه، ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه، كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته، بل تمكينه عبده عن معصيته وإعانته عليها، وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له، ويقضي وطره من معصيته، يعينه ويستعين عليها بنعمه –من أقوى الدواعي إلى محبته، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم تملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه مَن يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه إليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

فألأم اللؤم تخلّف القلوب عن محبة مَن هذا شأنه، وتعلقها بمحبة سواه.

* وأيضًا فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك، كما في الأثر الإلهي: "عبدي كلٌّ يُريدك لنفسه، وأنا أريدك لك" فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو معرضٌ عنه مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه بمحبة سواه؟.

وأيضًا، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته؟.

وأيضًا فمطالبك –بل مطالب الخلق كلهم جميعًا– لديه، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، **{يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}**[1] لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأَل، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه،

---

[1] الآية: ٢٩ من سورة الرحمن.

ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليهم معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه نفس وقال: "من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟" كما قيل: "أدعوك وللوصل تأبى، أبعث رسولي في الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك في النوم".

وكيف لا تحب القلوب من لا يتأتى بالحسنات إلا هو، ولا يذهب السيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفان، وينيل الطلبات سواه؟.

فهو أحقُّ مَن ذُكِر، وأحَقُّ مَن شُكِر، وأحَقُّ مَنْ عُبِد، وأحَقُّ مَنْ حُمِد، وأصبَرُ مَن ابتغى، وأرأفُ من مَلَك، وأجودُ مَن سُئِل، وأوسع من أعطى، وأرحم مَن استُرحِم، وأكرَمُ مَنْ قُصِد، وأعزّ من التُجئ إليه، وأكفى من توكل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويعصي فيغفر ويعفو، وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد وأجلّ حفيظ وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبيهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ما اعتاض بذل حبه لسواه من

عوض ولو ملك الوجود بأسره

فصل: كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة:

* وهذا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلوب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت الحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل، فلذة العبد من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل العام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرف هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي وعاقل، إذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألمًا أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها وأجل، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوّتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، كما قال تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**[1].

وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: **{فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**[2].

* والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من الخلود أبدًا، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا المعنى قصده الناصح لقومه: **{يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}**[3] فأخبرهم أن الدنيا متاع يُستمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هي المستقر.

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة، ولذلك خُلقت الدنيا ولذاتها، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يُذم تناولها، بل يُحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

---

[1] الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى.

[2] الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة طه.

[3] الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة غافر.

رؤية الله:

* إذا عُرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلمه منه، والقرب منه، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: "فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه" وفي حديث آخر: "إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم".

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر ﷺ عن النبي ﷺ في دعائه: "وأسألك لذة النظرة إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك".

وفي كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعًا: "كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك".

* وإذا عُرف هذا فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقد تقدم ذلك، وكان غيره يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب، يقول في حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره:

أف للدنيا إذا ما لم يكن
صاحب الدنيا محبّا أو حبيبا

ويقول الآخر:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها
وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر:

لكن إلى سكن تلذ بجنبه

ذهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر:

تشكَّى لمجهول الصبابة، ليتني

تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها

فلم يلقاه قبلي محب ولا بعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لـــذة، ولا نعـــيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإله الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا المر لا يصد بـــه إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

* **والمقصود:** أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة.

ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يُثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه، وشـــفاء غيظـــه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟.

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلامًا أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا مـــن دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم بـــبعض، كمـــا يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[1].

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق.

---

[1] الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة الأنعام.

وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدم لغيره طعامًا لذيذًا مشمومًا يستدرجه إلى هلاكه.

قال تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[1].

قال بعض السلف في تفسيره: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[2].

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ}[3].

وقال في حقهم: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[4].

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مآرب كانت في الحياة لأهلها

عِذابًا، فصارت في المعاد عَذابا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذا اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: "كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته فإنهن من الحق".

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل.

فصل: الحب الذي لا ينكر ولا يذم:

* فهذا الحب لا ينكر ولا يذم، بل هو أحمد أنواع الحب، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعني المحبة الخاصة، التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه، وإلا فكل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة

---

[1] الآيتان ١٨٢ ، ١٨٣ من سورة الأعراف.

[2] الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة الأنعام.

[3] الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون.

[4] الآية: ٥٥ من سورة التوبة.

تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما، فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي الذهن، وتروض النفس، وتطيب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء، وكانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا

سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب، وكذلك محبة كلام الله، فإنه من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان ﷺ : "لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله".

وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟.

وقال النبي ﷺ يومً لعبد الله بن مسعود ﷺ : "اقرأ عليَّ" فقال: أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ فقال: "إني أحب أن أسمعه من غيري" فاستفتح فقرأ سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً}**[1] قال: "حسبك" فرع فرأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء.

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكِّرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون.

فلمحبي القرآن –من الوجد والذوق، واللذة، والحلاوة، والسرور– أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل، ذوقه ووجده، ،طربه وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل:

تقرأ عليكم الخدمة وأنت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد تميل كالسكران.

فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد أنه على شيء.

---

[1] الآية: ٤١ من سورة النساء.

ففي محبة الله وكلام رسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه.

فصل: محبة الزوجات:

* **وأما محبة الزوجات:** فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله وقد امتن الله سبحانه به على عباده فقال: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**[1].

فجعل المرأة سكنًا لرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحب، وهو المودة المقترنة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: **{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً}**[2].

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر.

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ : أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: "إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه".

ففي هذا الحديث عدة فوائد:

منها: الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه، كما يقوم الطعام مقام الطعام، والثوب مقام الثوب.

ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية، وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقض شهوته لها، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح، كما في سنن ابن ماجه مرفوعًا: "لم ير للمتحابين مثل النكاح".

---

[1] الآية: ٢١ من سورة الروم.

[2] الآيات من ٢٦ – ٢٨ من سورة النساء.

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواء شرعًا، وقد تداوى به داود عليه السلام، ولم يرتكب نبي الله محرمًا، وإنما تزوج امرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته، ولا يليق بنا المزيد على هذا.

وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير النبي ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها لا بد، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان قد تبنى زيدًا قبل النبوة، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعًا عامّا فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ ، فناداها من وراء الباب: يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له فوق عرشه وجاء الوحي بذلك: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا}[1].

فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول: "أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات" فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب.

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حُبب إليه النساء، كما في الصحيح عن أنس عنه ﷺ "حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة" هذا لفظ الحديث، لا ما يرويه بعضهم "حبب إليّ من دنياكم ثلاث" زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد هذا الحديث: "أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن" وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا: ما همه إلا النكاح فردّ الله سبحانه عن رسوله ﷺ ونافح عنه فقال: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً}**[2].

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرَّى بها.

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليل على تسعين امرأة.

وسُئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: "عائشة رضي الله عنها" وقال عن خديجة: "إني رزقت حبها".

---

[1] الآية: ٣٧ من سورة الأحزاب.

[2] الآية: ٥٤ من سورة النساء.

فمحبة النساء من كمال الإنسان، قال ابن عباس: "خير هذه الأمة أكثرها نساء".

ذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جلولاء جارية كأن عنقها إبريق من فضة، قال عبد الله: "فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون" وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء، بخلاف الأمة المشتراة.

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية بخلاف المشتراة، فقد ينفسخ فيه الملك، فيكون مستمتعًا بأمة غيره.

وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت، وذلك في قصة مغيث وبريرة لما رآه النبي ﷺ يمشي خلفها ودموعه تجري على خديه، فقال لها رسول الله ﷺ "لو راجعتيه؟ فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ فقال: لا، إنما أشفع، فقالت: لا حاجة لي به، فقال لعمه: يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغضها له" ولم ينكر عليه حبها، وإن كانت قد بانت منه.

وكان النبي ﷺ يسوي بين نسائه في القسم ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك"[1] يعني في الحب، وقد قال تعالى: **{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ}**[2] يعني في الحب والجماع.

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان، وكذلك علي رضي الله عنه أُتي بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق، ولكني أصدقك:

تعلقت في دار الرياحي خودة
يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب
إذا افتخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي
أبيت وفيها من توقدها جمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيَّحوا
هو اللص محتومًا له القتل والأسر

---

[1] ضعفه الألباني في الجامع الصغير معزوًا لأحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم عن عائشة رضي الله عنها، انظر ضعيف الجامع الصغير (٤٥٩٦).

[2] الآية: ١٢٩ من سورة النساء.

فلما سمع علي بن أبي طالب ﷺ شعره رق له، وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها، فقال يا أمير المؤمنين: سله من هو؟ فقال: النهاس بن عيينة، فقال: خذها فهي لك.

واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجابًا شديدًا، فسمعها يومًا تنشد أبياتًا منها:

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى

طريرًا وسيمًا بعد ما طرَّ شاربه

فسألها، فأخبرته أنها تحب سيدها، فردها إليه وفي قلبه منها.

وذكر الزمخشري في ربيعة أن زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه

كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل؟

له مقلة أما الأماقي قريحة

وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتاج لقائلها إن عرفته حتى تجمع بينه وبين محبة من يحبه، فبينا هي بالمزدلفة إذ سمعت من ينشدها فطلبته فزعم أنه قالها في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه، فوجهت إلى الحي، وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه، وإذا المرأة أعشق له منه لها، فكانت تعده من أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشيء أسَرَّ مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الخرائطي: وكان لسلمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان، فكتب الغلام إليها يومًا:

ولقد رأيتك في المنام كأنما

عاطيتني من ريق فيك البارد

وكأن كفك في يدي وكأننا

بتنا جميعًا في فراش واحد

فطفقت يومي كله متراقدًا

لأراك في نومي، ولست براقد

فأجابته الجارية:

خيرًا رأيت وكل ما أبصرته

ستناله مني برغم الحاسد

إني لأرجو أن تكون معانقي

فتبيت مني فوق ثدي ناهد

وأراك بين خلاخلي ودمالجي

وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ سليمان ذلك فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيرته.

وقال جامع بن برخية: سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة: هل في حب دهمنا من وزر؟.

فقال سعيد: إنما تلام على ما تستطيع من الأمر، فقال سعيد: والله ما سألني أحد عن هذا، ولو سألتني ما كنت أجيب إلا به.

أقسام عشق النساء:

فعشق النساء ثلاثة أقسام: هو قربة وطاعة، وهو عشق امرأته وجاريته، وهذا العشق عشق نافع، فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح، وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله، وعند الناس.

وعشق هو مقت من الله وبعد من رحمته، وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه، وهو عشق المردان، فما ابتلي به إلا من سقط من عين الله، وطرد عن بابه، وأبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله، ابتلاه بمحبة المردان، وهي المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت، فما أتوا من هذا العشق.

قال الله تعالى: **{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}**[1].

ودواء هذا الداء: الاستغاثة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعويض بحبه وقربه، والتفكر في الألم الذي يعقبه هذا العشق، واللذة التي تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبيرة الجنازة، وليعلم أن البلاء قد أحاط به.

والقسم الثالث: العشق المباح، وهو الواقع من غير قصد، كعشق من وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فتعلق قلبه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يملك ولا يعاقب، والأنفع له مدافعته والاشتغال عنه بما هو أنفع له منه، ويحب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى، فيثبته الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

---

[1] الآية: ٧٢ من سورة الحجر.

فصل: أقسام الناس في العشق:

*** والناس في العشق ثلاثة أقسام:**

منهم: من يعشق الجمال المطلق، وقلبه يهيم في كل واد، له في كل صورة جميلة مراد.

ومنهم: من يعشق الجمال المقيد، سواء طمع في وصاله أو لا.

ومنهم: من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله.

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف.

فعاشق الجمال المطلق، يهيم قلبه في كل واد، وله في كل صورة جميلة مراد:

فيومًا بحزوى، ويومًا بالعقيق وبالـ

ـعذيب يومًا، ويومًا بالخليصاء

وتارةً ينتحي نجدًا وآونةً

شعب العقيق وطورًا قصر تيماء

فهذا عشقه أوسع، ولكنه ثابت كثير التنقل.

يهيم بهذا ثم يعشق غيره

ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه، وأدوم محبة له، ومحبته أقوى من محبة الأول، لاجتماعهما في واحد، ولكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال، وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم، وحبه أقوى، لأن الطمع يمده ويقويه.

فصل: حديث من عشق فعف:

* وأما حديث "من عشق فعف" فهذا يرويه سويد بن سعيد، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه.

قال ابن عدي في كامله: هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد، وكذا ذكر البيهقي وابن طاهر في الذخيرة والتذكرة، وأبو الفرج بن الجوزي وعده في الموضوعات، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله، وقال: أنا أتعجب منه.

قلت: والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه، فغلط سويد في رفعه.

قال محمد بن خلف بن المرزبان: حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به، فعاتبه على ذلك، فأسقط ذكر النبي ﷺ ، وكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه، ولا يشبه هذا كلام النبوة.

وأما رواية الخطيب له عن الزهري: حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا سويد بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا، فمن أبين الخطأ ولا يحمل هشام عن أبيه عن عائشة، مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله ﷺ قط، ولا حدث به عروة عنها، ولا حدث به هشام قط.

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا فكذب على ابن الماجشون، فإنه لم يحدث بهذا، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين، ويا سبحان الله! كيف يتحمل هذا الإسناد مثل هذا المتن؟ فقبَّح الله الوضاعين.

وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل: حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعًا، وهذا غلط قبيح، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح، لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتدال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك بن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح، والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء.

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه، ويرجع في التصحيح إليه، ولا من عادته التسامح والتساهل، فإنه لم يصف نفسه له، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغث والسمين قد أنكره وشهد ببطلانه.

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه.

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن الميت عشقًا، فقال: "قتيل الهوى لا عقل له ولا قود".

ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق، وقد تقدم ذلك.

فهذا نفس ما روي عنه ذلك.

ومما يوضح ذلك: أن النبي ﷺ عدَّ الشهداء في الصحيح، فذكر المقتول في الجهاد، والمبطون، ،الحرق، والنفساء يقتلها ولدها، والغرق، وصاحب ذات الجنب، ولم يذكر منهم من يقتله العشق.

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله، لكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه، وآثر محبة الله ورضاه، هذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}**[1].

وتحت قوله تعالى: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}**[2].

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه.

* * *

تم بحمد الله

لا تنسونا من دعوةٍ صالحةٍ بظهر الغيب . .

أخوكم **Modhallal**

modhallal@al-islam.com

---

[1] الآيتان: ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات.

[2] الآية: ٤٦ من سورة الرحمن.